


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
DUPL

المسيحية والاسلام

١

هل يجوز للمسلم
ان يعتبر المسيحي مشركاً او كافراً

بقلم

الاب خليل اده اليسوعي

المطبعة الكاثوليكية – بيروت

١٩٣٩



Yasüt

هل يجوز للمسلم ان يعتبر المسيحي مشركاً او كافراً ؟

لِمَ هذا السؤال وأية فائدة منه ؟ ألا يُخشى ان يثير البحث فيه هواجس قد طال ما اجتهد عقلاؤنا من أية ملّة كانوا ان يطفئوا جذوتها حرصاً على السلام والوئام ؟ لا شك ان مثل هذه الافكار تتبادر الى ذهن القارئ لدى اطّلاعه على عنوان مقالنا . ومع ذلك لا نرى بدّاً من الجواب على السؤال الذي قدّمناه وذكر السبب الذي يبرّره .

لا نكير ان السواد الاعظم من المسلمين — حتى المتعلّمين منهم — يعتبرون المسيحي كافراً بل ربما اعتبروه مشركاً لانه يعتقد بالتثليث . والتثليث الذي ينسبونه الينا غالباً انما هو عبارة عن عبادة الباري تعالى واشراك المسيح الانسان والعذراء والدته مع الخالق في عبادتنا له . تجد هذه التهمة الشنعاء[1] في كتبهم ومؤلفاتهم . أفيجوز للمسيحي اذا

---

١) حتى في القرآن في سورة « المائدة » ٢٠ و ١٢١

نعم قد زعم بعضهم ان القرآن لم يوجّه كلامه الى المسيحية عموماً بل اراد فقط دحض ضلال شيعة واحدة مرقت من الدين المسيحي . ولكن لسوء الحظ ليس لهذا الرأي من اساس . فانك لا تجد في تأريخ « الهرطقات » — اي الاضاليل المنافية للايمان الحقيقي والتي رذلتها الكنيسة — من يقول به . ولك في تآليف القديس يوحنا الدمشقي (المجلّد الاول من اعماله — الفصل في الهرطقات) وهو العلّامة الشهير في دمشق († ٧٥٤) والمقرّب الى الخلفاء الامويّين والمطّلع على احوال المسيحية عموماً وأحوال العرب خصوصاً شهادة بليغة على صحّة قولنا . فانه في فصله المعنون

غار على دينه ان يتركها شائعة ولا يحاول ان يبيّن بطلانها ؟ لا لعمري . لن يرضى شرفه بذلك ولا حبّ الحقّ . بل ولا صالح اخواننا المسلمين انفسهم . فانه يهتهم كما يهمّنا — فضلاً عن معرفة الحقّ — جمع كلمتنا للسعي وراء خير الوطن . والحال انهم اذا اعتبرونا مشركين يستنكفون من مصافحتنا ومـدّ يدهم الينا ليشتركوا معنا فى العمل اذ انهم نشأوا على فكرة المقاومة للشرك حتى بالسلاح والقتال فالمصلحة العامّة تقتضي منّا تبديد هذه الاوهام الساطية على عقول الاكثرية منهم .

ولقد كان هذا المسعى ضرباً من المحال في عهد السلطنة العثمانية اذ لم يكن للمسيحي الحرّية الدينيّة التامة اللازمة للدفاع عن مبادئه . امّا الآن وقد أُطلقت له الحرية فلا يبقى له عذر في السكوت عن تهمة باطلة تشينه وتضرّ كما قلنا بالاتحاد بين جميع عناصر الامة لخير الوطن .

وليس مرادنا الآن — كما أمكنك استدراكه مما قدّمناه — المجادلة او إقامة البرهان على صحة الوحي الذي نسند اليـه الحقائق التي نؤمن بها فاننا نؤجل ذلك الى مقالة اخرى ان شاء الله . انا غرضنا واحد الآن وهو ان نبيّن **ما هو** معتقدنا **بالثالوث** ثم بسيدنا يسوع المسيح **وبمجده** . وبعمله الذى نسمّيه **سر الفداء** . لـيرى كل عاقل منصف ان ليس فيه

« الهرطقات » أنشأ لائحة ذكر فيها كل الاضاليل والشيع المسيحية منذ الجيل الاول وعددها ٢٠٣ فليس فيها قطّ هرطقة ولا شيعة ادّعت ان الثالوث الاقدس عبارة عن الله عزّ وجلّ والمسيح الانسان ومريم أمـه . كما نقل التهانوي في كتابه « اصطلاحات الفنون » في مادّة « النصارى » عن « الانسان الكامل » في باب « التوراة » . فتأمّل

مطلقاً ما يناقض حقيقة التوحيد وباقي مقتضيات العقل السليم — وان كان يفوق قواه الطبيعية — فيتضح لكل محبّ للحق — بشرط ان يكون له بعض الالمام بالعلوم الفلسفية — انه لا يجوز له ان يلصق بنا وصمة الشرك او الكفر . بل سيرى من مجرّد عرض الحقائق التي نؤمن بها سموّها وجمالها مما يحمل ذوي التبصر في الامور على الاقرار انها ليست من اختراعات البشر ولا بدّ لادراك حقائق معتقدنا من بعض مقدّمات فلسفية نأتي بها بما امكن من الايجاز .



١

مقدّمات

في العلم والايمان

ان لمعرفة الحقيقة طريقتين :

الاولى ان يرى الانسان **بعينه** — بعين العقل — نور الحقيقة سواء أضاءت له بديهياً كما تضيء الشمس للعين الباصرة ام بعد البحث فقط والاستعانة بالحجج والبراهين . هكذا أعرف **بذاتي** وبديهياً ان « اثنين واثنين اربعة » لاني ارى هذه الحقيقة بعين العقل كما ارى الشمس بعين الجسد . وكذلك اعرف **بذاتي** — إن كنت من ارباب العلوم الهندسية — ولكن **بعد** اقامة البرهان القضايا الهندسية مثلًا ان مجموع زوايا المثلث يساوي زاويتين مستقيمتين .

الطريقة الثانية ان لا يرى الانسان بعينه حقيقة الشيء ولكن **بعين آخر** رآها هو وأعلمني بها فقبلتها بكل تأكيد وارتياح بعد ان تحققتُ ان **قائلها عالم** بها حقّ العلم **وصادق** في نقلها اليَّ . ولا أُحجم عن التسليم بصحتها وان كنت لا افهمها تام الفهم فانه يكفيني حتى اكون

على هدى **علم الغائب وصدق الناقل** . بهذه الطريقة يتوصل الأميون والجهال — بل العلماء ايضاً خارجاً عن دائرة علومهم الاختصاصية — الى معرفة حقائق كثيرة يقبلونها وان كانوا عاجزين عن بيان صحتها وشرح كيفيتها . هكذا يعرفون مثلاً ان الاصوات والصور تنقل الينا بواسطة أشعة الراديو وليس بامكانهم ان يفهموا ما هي هذه الأشعة ولا كيف تتولد وتعمل عملها .

فالطريقة **الاولى** هي طريقة **العلم** . **والثانية** هي طريقة **التصديق**. ومنها **الايمان**.

وكلتا الطريقتين تبلغنا معرفة الحق وكلتاهما ضروريتان لحياتنا العقلية والادبية والاجتماعية الحاضرة .

. . .

الايمان هو إذن **تصديق** . وأي نوع من التصديق هو ؟

هو **تصديق لكلام الله** اي لحقائق أوحاها الله وبلّغنا اياها بواسطة شهود أثبات نسميهم **أنبياء** أو **رسلا** .

من البديهي ان الله يستطيع ان يكلّم مخلوقاته وهو القادر على كل شيء . وانه لا يكلّم كل واحد منهم . فاذا أراد ان يعرّفهم حقائق لا يتوصلون الى معرفتها بنور العقل الطبيعي والبحث العلمي انتدب عادة رجالاً ممتازين بفضائلهم وقداستهم وعرّفهم ما يريد ان يكشف لنا من الحقائق ليبلّغونا اياها . هذا ما نراه في تاريخ العهد القديم .

وكيف نتحقق ان هؤلاء المبعوثين من الله لم ينخدعوا ولم يخدعونا

باقوالهم ؟ اننا نتأكد ان الانبياء او الرسل شهود صدق على الله لم ينخدعوا ولا يخدعون **اولاً** : برؤيا **فراستهم** الفائقة لان الله لا يقرّب اليه احداً حتى يسلّمه اسراره ويرسله برسالة خصوصية الى عبيده الا من كان ممتازاً بفضائله السامية . **وثانياً** : بمشاهدة **المعجزات** التي يأتيها هؤلاء الرسل لاثبات رسالتهم والتي تفوق كل قوى الخلائق بشريةً كانت ام ملائكية . فالمعجزة اذاً هي كختم الباري عزّ وجلّ على صكّ الوحي . ولا يجوز للعاقل ان يصدّق من يدّعي انه منتدَب من قبل الله ان لم يرَ ختم الله اي المعجزة على صك الانتداب . هذا مثلاً السيّد المسيح . قد اراد ان يثبت دعوته لجماهير اليهود الذين كانوا واقفين أمام قبر لعازر وكان لعازر قد مات من اربعة ايام ودُفن وأنتن (يوحنا ١١ : ٤١ الخ) فجاء الى القبر وقال :

« يا ابتِ اشكرك لانك سمعتَ لي وقد علمتُ انك تسمع لي في كل حين . لكن قلت هذا لاجل هذا الجمع الواقف حولي **ليؤمنوا انك انت ارسلتني** . ولمّا قال هذا صرخ بصوت عظيم : يا لعازر هلمّ خارجاً . فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بلفائف ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلّوه ودعوه يذهب . فآمن به كثير من اليهود[١] الذين جاؤوا الى مريم (اخت لعازر) ورأوا ما صنع » .

---

١) لا كلّهم لان كثيرين كانوا من اتباع الفرّيسيين اعداء يسوع يصمّون الآذان عن سماع الحق . والايمان عمل متعلّق بحريّة الانسان فهو — بعد ان يرى شهادة الحق — يبقى قادرًا على رفض التصديق ولو توفّرت الشواهد المثبتة علم الناقل وصدقه . هذا ما نتحققه كل يوم .

«آمن بالمسيح كثيرون» فهل أصابوا بعملهم هذا ؟ بلا شك . لأنهم رأوا معجزة تفوق قوى كل المخلوقات معاً فتيقّنوا ان يد الله صنعتها. وتأكدوا ان المسيح الذي أبدى هذه الآية واستشهد بها ليثبت رسالته هو حقيقة من الله . فاذا كان المسيح مرسلاً من قِبَل الله ليعلمنا سبل الخلاص وجب علينا ان **نصدقه** عندما يبوح بالحقائق التي تسلّمها من مرسله كما نصدّق كلام الله عينه . اعني ان **نؤمن به** وباقوال الله التي يبلّغنا اياها .

وهذا الالزام لا يتناول فقط الذين شهدوا قيامة لعازر من الأموات بل الذين سمعوا بها ايضاً اذا ما تحققوا صحّة وقوع هذا الحادث العجيب كما يتحققون صحة باقي الحوادث الواقعة بعيداً عنهم اي بفحص المستندات التاريخية الصادقة التي تصل اليهم . فاذا ثبت لديهم صحّة المعجزة هذه لزمهم ان **يؤمنوا** بالمسيح الذي صنعها وبالكلام الذي يأتيهم به من قبل الله .

هذا هو الايمان . هو تصديق لكلام تأكدنا انه كلام الله وقبلناه لا لأنه مطابق للمبادئ العلمية والاصول المنطقية — وان لم يكن مخالفاً لها — بل لان الله الذي قاله هو الحق بالذات لا يغلط ولا يغالط[1] . وعليه اذا كنا لا نفهمه تماماً فليس هذا داعياً البتة لرفضه والّا ألحقنا بالباري تعالى اهانة لا تُطاق اذ اننا بامتناعنا عن الخضوع لتعليمه المقدس ننسب

١) ولذلك يكون فعل الايمان فعل اكرام لله عزّ وجلّ لانه اعتراف بعلمه تعالى وصدقه الغير المتناهيين

اليه ضرورةً اماَّ الجهل واماَّ الغشّ وكلاهما كفر ظاهر لا يُغتفَر .

هذه حقيقة اغفلها بعض من يؤمن بالله مثـــل المرحوم محمد عبده [١] ومحمد حسين [٢] وغيرهما من علماء الاسلام فانهم لا يريدون ان يقبلوا الوحي الّا اذا ظهرت لهم حقيقة الشيء الموحى به منطقياً . فلا يميّزون بين الطريقتين المعقولتين اللتين وصفناهما ويخلطون بين المعرفة بالايمان او التصديق والمعرفة بالعلم وهـــذا ضلال مبين ضلال « العقليين » (rationalistes) . ضلال وخيم لانه اهانة فظيعة للباري تعالى فضلاً عن انه منافٍ للاصول العقلية نفسها وهي توجب على العاقل ان يصدق كلام انسان ثبت له انه عالم وصادق وان كان لا يفهم مقاله تمام الفهم .

ثم ان أتباع هذه الفلسفة الغير معقولة — وعددهم يتناقص يوماً فيوماً لان كثيراً منهم تهوي بهم فلسفتهم الى لجة الالحاد والكفر — ينسون ان العقل البشري محدود والله هو الحق الغير المتناهي فكيف يستطيع عقل محدود ان يتصوّر الجوهر الالهي الذي لا حد له ويحيط بـه علماً من كل جانب ؟ هذا ضرب من الجنون . حتى في الامور الطبيعية كم وكم من الحقائق لا نفهمها مع اننا نسلّم بها بلا تردّد ! هل تعرف عالماً كبيراً عرف مثلاً ما هي الحياة بذاتهـا ! انه لا يدرك الّا مفاعيلها ومظاهرها فيسلّم بحقيقتها ولا يعرف جوهرها .

---

١) راجع « الاسلام والنصرانية » وجه ٢٧ — مطبعة المنار بمصر

٢) « حياة محمد » ص د من تقديم الكتاب

ولعلّ ضلال كثيرين منهم متأتٍ عن انهم لا يميّزون بين ما هو **ضد العقل** وما هو **فوق العقل** . فما هو **ضد العقل** هو فاسد باطل لا يجوز قبوله والعمل به وحاشا الله ان يأمرنا بتصديق ما هو مخالف للعقل .

فاذا عُرضت على انسان قضية ما **مضادة** للحقائق الطبيعيـة او المنطقية الراهنة يجب عليه ان يرذلها للحال ولا يلتفت الى الحجج الواهنة التي يحاولون ان يثبتوا بها صدق قائلها وعلمه لانها فاسدة لا ريب في فسادها . ولكن لا يجوز مثل هذا القول اذا كانت القضية **فوق** مقدرة عقولنا القاصرة . فهذه يجب قبولها **بعد** فحص **المستندات** المثبتة ان قائلها **عالم وصادق** . وهذه طريقة الايمان بالنظر الى ما يفوق ادراك العقل المخلوق .

ليس مرادنا ان مثل هذه القضية الفائقة حدّ عقولنا البشرية لا تُفهم بتاتاً . انما المعنى ان الكلام **مفهوم** — اذ ان الله لا يتكلّم حتى لا يُفهَم — غير ان العقل البشري لا يدرك **كيفيةَ** الحقيقة الموحاة . مثال ذلك سرّ **التثليث** الذي يعلمنا اياه **الايمان المسيحي** . اننا نفهم جيّداً معناه وهو ان الله **واحد** بجوهره الالهي وان هذا الجوهر الوحيد هو في ثلاثة اشخاص او اقانيم وليس في ذلك تناقض البتة كما سنشرحه — غير اننا عاجزون عن ادراك **كيفيةِ** هذا الامر أي كيف **ثلاثة** اشخاص متميّزين الواحد عن الآخر جوهر **واحد** . هذا ما نسمّيه **السر** .

ولا لأحد ان يقول : انا لا أسلّم الّا بما ادرك حقيقته **وكيفيته** . اذا

ليكونن ممّن يكذبون بأعمالهم ما تنطق به ألسنتهم . فمعظم معلوماتهم التي يلتذون بها ويعملون بموجبها لا يستطيعون بيان كيفيتها . يستعملون مثلاً التلغراف والتلفون والراديو وهل في وسعهم — الّا النزر القليل منهم — ان يشرحوا كيف تنقل كلامهم ؟ وكم من الاسرار في الطبيعة يعجز العلماء انفسهم عن شرحها . اسمع مـا صرّح به واحد من أعظم علماء عصرنا « ماركوني » الشهير لاحد الصحفيين الانكليز :

« العلم وحده لا يقدر ان يفتر اموراً عديدة : مـا نحن ؟ من اين أتينا ؟ كيف ندخل في الحياة ؟ من يوم أخذ الانسان يعالج هذه المسائل ويحاول ان يسبر غورها لم يتوفق الى ايجاد حلّ مرضيّ لها » .

فليس اذاً من المعقول ان يأبى الانسان التسليم بما يعجز عن شرحه حسبه ان يثبت **علم قائله وصدقه** .

ولا بدّ من التنبيه انه ليست كل قضايا ايماننـا تفوق ادراك العقل البشري فان هناك جملة حقائق يتوصّل الى معرفتها بقواه الطبيعية كوجود الله وصفاته الحسناء الخ . وقد اوحاها الله مع ذلك . فاذا قبلناها اجلالاً لصدق موحيها الالهي وعلمه الغير المتناهي كان ذلك فعل **ايمان** منـا بكلام الله .

واماً التثليث والتجسد والفـداء فهي حقائق تفوق مقدرة العقول البشرية فلا يمكننا التوصل الى معرفتها الّا بالوحي وكذلك يعجز من يريد إنكارها عن بيان فسادها بالبرهان العقلي . وقد أوحاها الله — كما سنبيّنه ان شاء الله — الّا انّنا نكتفي الآن بان نشرح حقيقتها ونبيّن ان ليس

فيها اثر البتة للتناقض او مخالفة الحقائق الطبيعية الراهنة"(١) .

---

١) يحسن بنا ان ننبه القارئ ولا سيما المسلم ان الله لا يوحي عادة الالفاظ التي تعبّر عن المعاني التي يقصد تبليغها . فقد يفعل ذلك مرارًا ولكنه في الغالب يُفهم النبيّ مراده ويترك له طريقة التعبير بحسب اصطلاحات لغته وعصره ساهرًا فقط حتى لا يأتي بكلام يغيّر المعاني الموحاة . ولذلك نجد بين الانبياء من هم في اعلى طبقة من البلاغة مثل أشعيا ومن هم غرباء عن أساليب الكلام الفصيح مثل عاموس وكلاهما ينقل الينا الوحي الالهي . وينتج ايضاً مما قلناه انه يجب علينا الآن اذا اردنا ان نفهم كلام الله ان نعتبر مغزى الالفاظ لا بحسب اصطلاحنا العصري لكن بحسب اصطلاح عصر النبي الناقل للوحي

٢

في سر الثالوث الاقدس

(التثليث)

نؤمن اولًا ان الله واحد فقط .

روح محض كان دائماً ولن يزال ابدًا .

لا حدّ لكماله . قادر على كل شيء . خالق السماوات والارض وما فيها .

ربّ الكل ومدبّر الكون بعنايته الصمدانية والديّان العادل الذي سوف يجازي كل انسان بحسب أعماله .

هذا ما نؤمن به اولًا . وقد ملأَت صفحاتِ الكتب المنزلة اقوالُ الانبياء الموضحة من قبل الله لهذه الصفات الالهية .

هذا ايضاً ما يتوّصل العقل السليم الى معرفته بالبراهين العقلية . وقد تسابق الفلاسفة في هذا الميدان من عهد الاقدمين قبل المسيح الى ايأمنا . ولكنهم كثيرًا ما خلطوا بين الغث والسمين . ذلك لان العقل البشري الضعيف يترنح عندما يسمو الى تلك الابحاث العالية التي يكاد موضوعها يفوق ادراكه فيقع في اضاليل عديدة ولذلك كان الوحي لهذه الحقائق الجوهرية ضرورياً لنعرفهـا بدقة وتأكيد وبلا مزيج ضلال . ولم يتأخر الباري تعالى عن تعريفها بانبيائه كما قلنا .

نؤمن ثانياً — وهنا السرّ الغامض الذي تقصر عقولنا عن ان تحيط علماً به فأوحى الله به — ان هذا **الاله الواحد** هو بثلاثة « اقانيم » أو

أشخاص [١] متساوية ومتميّزة مع ذلك : « آب [٢] وابن وروح قدُس » .
ولفهم هذه الحقيقة — اي المعنى المراد بها لا كيفيتها التي لا تدرك — لا بدّ من التمييز بين « الطبيعة » او « الجوهر » من جهة و« الاقنوم » او « الشخص » من جهة أُخرى ليتضح لك ان الطبيعة ليست « الاقنوم » وان ليس تناقض بين وحدة الجوهر وتثليث الاقنوم .

. . .

عندما اقول : « انا رجل . انتَ انسان . هو حيوان ناطق الخ فعلامَ يدلّ الضمير انا . انت . هو ؟ يدلّ بلا شك على شخص او « اقنوم » . والخبر الذي أُسند الى الضمير اي رجل . انسان . حيوان ناطق ؟ انه يدل على طبيعة ذاك الشخص او الاقنوم ويفيد ان هذه الطبيعة ليست طبيعة ملاك روحاني ولا طبيعة بهيمية عجماء بل طبيعة بشريّة . فترى حالًا من هذا التحليل البسيط ان الطبيعة ليست الشخص بتمامه بل ان بينهما لفرقاً جوهرياً .

وفي الواقع ليس مفاد الضمير « انا » — وكذا قُلْ عن الضميرين « انت » و« هو » وما شاكلهما — هو هو بعينه مفاد لفظة « رجل » والّا لما أفاد التعبير المعنى المقصود وهو تعريف طبيعة الشخص المدلول عليه بالضمير « انا » . بل كان تحريره : « انا هو انا » او « رجل هو رجل » ألخ وليس هذا المراد من الجملة : « انا رجل » . والصحيح ان

١) نستعمل لفظة « شخص » بمعناها المصطلح عليه في اللغة الدارجة فنخصّصها بالعاقل مع انها في اللغة الفصحى تُطلق على غير العاقل ايضاً

٢) قد اعتدنا في اصطلاحنا المسيحي ان نسمّي الاقنوم الاول او الأب « الآب » بمد الهمزة

مدلول الضمير « انا » اعمّ وأوسع حملاً من مدلول الخبر « رجل » ولذلك أفادت الجملة معنى تاماً وهو ان هذا القائم بذاته والمشار اليه بلفظة « انا » له من جملة صفاته صفة جوهرية او طبيعية مدلول عليها بلفظة « الرجل » التي تُسند اليه . فترى ان الطبيعة ليست هي الاقنوم بالذات بل تتميّز عنه .

وهذا التميز يتضح لك اذا اعتبرت ان الأَفعال الصادرة عن القوى الطبيعية تُنسب الى الشخص او الاقنوم . فعند ما اقول : انا جئت . انا تكلّمت . انا جائع . انا فاكر . انا متوجع الخ فالمجيء والتكلم والجوع والفكر والتوجع الخ كل ذلك صادر عن شتى قواي الطبيعية ومع ذلك لا يُنسب الّا لشخصي مما يبيّن لك ان « الشخص » هو صاحب « الطبيعة » وقواها المختلفة . فالشخص اذن هو المالك والطبيعة هي المملوك فالشخص اذن غير الطبيعة اذ المالك غير المملوك وان لم يكن الشخص بلا طبيعة ولا الطبيعة بلا شخص تختصّ به

ويزيدك بياناً لهذه الحقيقة ملاحظة اخرى وهي ان طبيعتي مثلاً تتغيّر تغيّراً عرضياً . فان قواها الطبيعية تتطوّر . تتقوى او تضعف . تنمو او تنقص وكذلك افعالها . واما شخصي المدلول عليه بلفظة « أنا » فهو باقٍ دائماً هو هو ومسؤول دائماً عن كل اعماله الاختيارية . فشخصيّتي اذن ثابتة مع كل التغييرات العرضية الطارئة على طبيعتي . فالشخص اذن غير الطبيعة .

وان التميز بين هذين المبدئين الاساسيين يدركه حتى صغار الاولاد

عندما نفسّر لهم سرّ الثالوث الاقدس ويفهمون ان الطبيعة ليست الاقنوم .

اما المميّزات بين الشخص وطبيعته فتلك مسألة فلسفية صعبة جداً ولا حاجة الى بحثها . كفانا ان نعرف ان الطبيعة ليست هي الشخص بذاته وان الشخص هو « كل » مستقلّ بوجوده عن غيره وقائم في ذاته وان الطبيعة من حيثياته .

ولنطبّق الآن هذه الاصول الفلسفية على معتقدنا بالثالوث الاقدس .

قلنا ان **الله واحد بثلاثة اقانيم** . ونقول ذلك لا بقوة البراهين العقلية الطبيعية — فانها لا عمل لها في بيان هذه الحقيقة الفائقة ادراك العقل البشري — ولكن أخذاً عن تعليم السيد المسيح الذي وصل الينا بواسطة الرسل . والمراد بهذا القول ان **الجوهر**[1] **الالهي** — أو الطبيعة الالهية — هو **واحد** وهو بكلّيته وكماله في ثلاثة اقانيم او اشخاص آب وابن وروح قدس متساوين ومع ذلك متميزين كل واحد عن الآخر . فاذا طبّقنا

---

١) مفاد الجوهر والطبيعة واحد الّا ان لفظة « جوهر » تشير الى ان مدلولها قائم بذاته وحامل الأعراض . ولفظة « طبيعة » ان هذا القائم بذاته مصدر افعاله

ثم لا بدّ من التنبيه هنا ان الالفاظ التي نستعملها للدلالة على الأشياء المخلوقة وصفاتها يجب تحويرها عند ما نطلقها على ما قائله من الصفات الالهية . اعني انه يجب ان ننفي عن مؤدّاها كل ما تفيده من النقص . فالجوهر مثلاً يفيد معنى القيام بذاته مع الاشارة الى اعراض يحملها وتكمّله . فعندما نطلق هذه الكلمة على الله لا نريد بها الّا المعنى الاول وننفي كل اشارة الى الاعراض ووجودها اذ ليس في الله من عرض ولا تركيب . ولا عجب من هذا التعديل الواجب للمعاني لانه لا يمكننا ان نتكلّم عن الله الّا باستعارة اساليب كلام نستخرجها من تصوّرنا للمخلوقات . وشتّان بين المخلوق « المحدود » والخالق الذي « لا حدّ له »

الاصول الفلسفية التي شرحناها اتضح لنا حالاً ما يلي :

١ً ليس في قضيتنا هذا تناقض البتة كما لو قلنا : « واحد هو ثلاثة » . لان **الاقنوم غير الطبيعة** كما بيّنا . فلا ينجم حتماً عن تعدُّد الاقانيم تعدّد الطبيعة . فتبقى هذه واحدة والاقانيم التي لهم هذه الطبيعة الالهية ثلاثة . ولكن كيف يمكن ذلك ؟ هنا **السر** . ولم نكن لنقول به لو لم يبح به عزّ وجلّ . هو سرّ حياته الغير المتناهية والعاجز عقلنا المحدود ان يحصرها فليس له الّا ان يعتقد حقيقتها اذا ثبت له ان الله أوحاها .

٢ً ليس الآب والابن والروح القدس **ثلاثة آلهة** بما ان لهم طبيعة الهية واحدة . لان القول **بثلاثة آلهة** عبارة عن القول **بثلاث طبائع الهية** مختلفة . كما ان المراد بقولنا **ثلاثة رجال** مثلاً او ثلاث نساء هو ثلاث طبائع بشرية مختلفة . ونحن لا نعتقد الا بطبيعة واحدة الهية قائمة في كل من الاقانيم الثلاثة .

٣ً غير ان مسألة جوهرية تنشأ حالاً من هذا القول وهي هذه : لا يمكن ان يكون الحاصلون على الطبيعة الالهية **ثلاثة** الّا اذا كان لكل منهم ما يميزه عن الاثنين الآخرين والّا كانوا ضرورة شخصاً واحداً كما انهم طبيعة واحدة . ويجب ان لا يجعل المميز طبيعتهم **مختلفة** والّا تعددت فيصبحون **ثلاثة آلهة** وهو الشرك بعينه . فلا بدّ اذاً من ان يكون المميز حقيقياً حتى تكون الاقانيم **ثلاثة** ولا يمسّ الطبيعة حتى تبقى **واحدة** . فما هو هذا المميز ؟

نعرف من الوحي — او بالاقل نستنتج منه — ان **المميز** بين الاقانيم انما هو **نسبي او اضافي** كنسبة الابن الى أبيه مثلًا او الاب الى ابنه . وكنسبة المُحبّ الى محبوبه والمحبوب الى مُحبّه . فلا فرق بين الاقانيم الّا ان « الاقنوم الثاني » واسمه « الابن » هو **من** «الآب» اي من «الاقنوم الاول ». و« الاقنوم الثالث » هو **منهما** الآب والابن . او — كما يقول كثيرون من الآباء اليونان — هو **من** الآب **بالابن** . امّا الاقنوم الاول الآب فليس **من** أحد . فبهذا وبهذا فقط يتميز الاقانيم الثلاثة . وهذا التميز هو **نسبي** كما ترى .

وهو **حقيقي** اذ لا يمكن ان يكون **الصادر والصادر منه** شخصاً واحداً . فانهما متقابلان . وهذا التميّز هو **جوهري** لانه في حياة الله نفسها . ولا **يغير شيئاً** مع ذلك في طبيعة الله لانه **نسبي** والنسبة في الله لا تزيد شيئاً على كيان الطبيعة الالهية المطلق كما هو شأنها في المخلوقات فانها تزيد فيها عرضاً على الجوهر به **توجهه** الى غيره . امّا جوهر الله فهو غير متناهٍ . فيه كل الكمالات المطلقة والاضافية . فوجهة الآب الى الابن او وجهة الابن الى الآب ووجهة الآب والابن الى الروح القدس او وجهة الروح القدس الى الآب والابن تجعل الصادر والصادر منه **متقابلين** متميزين ليس الّا . وهي في الجوهر الالهي الكلي الكمال ولا **تزاد** عليه .

٤ً بقي علينا ان نشرح لماذا الاشخاص الالهية الثلاثة تُسمّى « آب وابن وروح قدس ».

١) ان الله كما يقول الفلاسفة — فعل محض[١] واحد بسيط أي لا تركيب فيه وغاية في البساطة. كلي الكمال. يعرف ذاته وكل شيء ممكن. وبمعرفته هذه الازلية يلد « كلمته » كما يلد العقل فكرته

---

١) يكفي لنفهم هذا الاصطلاح الفلسفي ان نتأمل المقابلة الآتية بيننا وبين الله: قبل ان اكون انا كنت من الممكنات أو — بكلام آخر مستعار من المبادئ الفلسفية الحقّة — كنت في حيّز « القوّة » او الإمكان. فلمّا برزت الى الوجود صرت في حيّز « الفعل ». امّا الله فهو « فعل » أزلي اي ان وجوده وكل كمالاته الغير المتناهية لها كيان دائم فعلاً لا ينتقل أبداً من حيّز القوّة الى حيّز الفعل مثل المخلوقات.

كذلك قبل ان افكِّر بشيء لي قوّة التفكّر وهذه القوّة ساكنة كأنها نائمة — لانها ناقصة — لا تعمل حتى اذا حرّكتها عوامل أخرى خرجت من حيز القوّة الى حيّز الفعل. وامّا الله فهو فاكر فعلاً منذ الأزل. بل فكره واحد يدرك به كل ما يُدرَك.

وما اقوله عن الفكر اقوله عن عمل إرادتي. اني مُريد أو محبّ بالقوّة ثم أصير مريداً او محبّاً بالفعل فانتقل اذاً من حيّز القوة الى حيّز الفعل. واما الله فليس كذلك فانه مريد دائماً بالفعل منذ الاول وليس في ارادته انتقال من القوّة الى الفعل. وكذا قل عن باقي الصفات والافعال. فهذه كلها موجودة منذ الازل في الله ولذلك نقول: ان الله « فعل محض ».

ونقول ايضاً انه « بسيط » اي لا تركيب فيه البتة. في المخلوقات وأسماها تتعدّد الصفات ولكل منها عمل خاص لا تتعدّاه الى آخر. فالشدّة مثلاً غير اللين والرحمة غير العدل وهلمّ جرّاً. ومن ائتلاف هذه الصفات يحصل التركيب وتُنفى البساطة. وامّا الله فهو فعل محض واحد. وهذا الفعل الواحد هو بمثابة كل الكمالات الممكن ان تكون فعلاً. فهو اذاً في غاية البساطة لا تركيب فيه مطلقاً.

اي الكلمة الباطنية . **فابنه** اذاً **كلمته** وهو صورة أبيه بكمالها كما ان الفكرة البشرية هي صورة الشيء المعقول . وهذه الصورة الكاملة الالهية **مستقلة** بذاتها . فهي اقنوم او شخص غير الذي ولده . بيد ان افكار البشر اعراض زائلة غير قائمة بذاتها . وهنا السرّ الذي لا يستطيع عقل بشري ان يسمو الى معرفته الّا اذا اوحاه الله .

ب) **الله فعل محض واحد بسيط كلي الكمال** . وهذا الفعل الغير المتناهي كمالًا ليس **معرفة** فقط انما هو ايضاً **محبة** لا حدّ لكمالها .

يحبّ الله الآب « كلمته » ابنه الذي فيه تتجلّى صورته بتمامها وجمالها الغير المتناهي كما ان ابنه يحبّه وكلّ شيء محبوب . وبفعل هذا الحبّ **الواحد** الصادر منهما « ينفح » كلاهما بنفحة واحدة روحهما القدّوس والكلي الكمال مثلهما . لانه « يأخذ مما لهما » فينبثق منهما كما ينبثق الحب البشري من ارادة الانسان بواسطة الفكرة . غير ان هذا الروح القدوس ليس كنفحة الحبّ البشري عرضاً روحانياً يزول . انما هو اقنوم ثالث متميّز عن الآب والابن وله جوهر الآب والابن بالذات . وهنا ايضاً السرّ السامي الذي لم تختلقه عقولنا الضعيفة بل اوحاه الله الينا[1] .

---

١) لماذا لا يسمّى الروح القدس « ابن الله » ؟

لان الروح القدس يصدر كما مرّ بك صدور فعل المحبة من الارادة .

فهذا الفعل لا يصدر بطريقة « الشبه » في الارادة للشيء المحبوب بل بطريقة « الميل » او « الباعث » فيها الى المحبوب . وعليه لا يجوز ان نسمّيه « ابن » الارادة لان الابن يحتوي صدوره على « الشبه » بينه وبين والده ولا محلّ لهذا « الشبه » في فعل الحبّ الصادر من الارادة .

ج) وهذا الفعل المحض الغير المتناهي بكماله الذي به يلد الآب ابنه وينفح كلاهما[1] روحهما القدوس هو بذاته فعل وجود الله الازلي الذي لا حدّ لعظمته وقدرته وكمالاته . وعليه ليس في فعل صدور الابن وصدور الروح القدس لا اول ولا ثانٍ . لا قبل ولا بعد . لان هذا الفعل واحد ولا يختلف بجوهره عن فعل الوجود الواحد .

ولا يظنّنَّ احد ان للآب من جرّاء ذلك على الابن والروح القدس او للابن على الروح القدس « أفضليَّة » ما تنفي كل مساواة بين الاقانيم الثلاثة لان ولادة الآب لابنه « كلمته » ونفح الآب والابن لروح محبتهما من ضرورة الحياة الالهية التي هي فهم ومحبة . فلا يمكن ان نتصوّر الآب بلا الابن والروح القدس لان فعل وجوده هو فعل اصداره الابن والروح القدس .

واماً اعمال الله الخارجية كخلق العالم وتدبيره الخ فمصدرها الطبيعة

وليس الامر كذلك في الفكر « ابن العقل » لان صدوره يقتضي « الشبه » بين العقل والمعقول . ولذلك بكل صواب نسمّي الاقنوم الثاني « كلمة الله » « ابن الله » .

١) لا فرق بين قولنا ان الآب ينفح روحه بكلمته او ان كلا الآب والابن ينفح الروح القدس . ذلك لان الارادة لا يمكنها ان تحبّ شيئاً الا اذا صوّره العقل فيشاركها جداً في الحب .

اماً في الله فالعقل والارادة واحد والعقل وفعل العقل واحد . والارادة وفعل الارادة واحد ولكن يتميّز فعل العقل من فعل الارادة « بالترتيب » لان المحبة لا تكون الآ « نظراً » الى ما يعقله العقل .

الالهية التي للاقانيم الثلاثة . فما يفعله الواحد يفعله الآخران وهكذا تتمّ وحدتهم في العمل كما هي تامة في الجوهر .

هذه هي **حياة الله** الذي تنازل واوحى الينا بشيء من أسرارها العجيبة . فما أسماها !

ومع سموّ هذه الحقائق التي تصف لنا حياة الله يمكننا ان ندرك شيئاً من جمالها الذي لا حدّ له كما اننا نستطيع ان نرى شيئاً من نور الشمس ولا نحدق فيها بصرنا لنتصوّرها كما هي .

من هذا الوحي الذي منَّ به الله علينا نعلم ان حياة الله **معرفة ومحبة** ولا صعوبة في ذلك لان حياة نفسنا في جوهرها هي ايضاً معرفة ومحبة وقد خلقها الله — كما يقول الكتاب — على صورته ومثاله » . ولكن ما لا يمكننا قط ان نتصوّره بمجرّد قوانا الطبيعية هو ان هذه الحياة الالهية **ليست عقيمة** . تلك المزيّة البديعة التي اعطاها الرب لمخلوقاته البشريّة ان « تثمر » وتهدي حياتها الى غيرها وتلد ابناء مثلها فيكمل بذلك فرحها ومجدها هي في الله عزّ وجلّ ايضاً وهي فيه **كاملة** لان الآب يعطي الابن وبالابن الروح القدس لا حياةً **شبيهة** حياته بل حياته بالذات . فكلمته اقنوم الهي حيّ مثله . وروح حبّه اقنوم آخر الهي حيّ كذلك مثل الآب والابن . وعلى هذا الشكل تكون الحياة في الله مشتركة بين اقانيمه الثلاثة .

وبهذه الحياة المشتركة يتمتع الله بسعادة العيشة **الاجتماعية** وبدرجة غير متناهية تفوق كل وصف .

ولم يكتفِ الله بكشف شيء من أسرار حياته بل اراد ان نشترك نحن ايضاً بها . وليس فقط في الآخرة حيث نراه وجهاً لوجه بل في هذه الدنيا ايضاً اذ ان الاقانيم الثلاثة تقيم فينا وتتّحد بنا إن كنا نحب الله ونحفظ وصاياه (يوحنا ١٤ : ١٦ و١٧ و٢٣) .

فما اجمل هذه التعاليم وما اسماها : فاذا بدت لنا حقيقة وحيها — ولا يصعب ذلك بنعمة الله — فلا يبقى لنا الّا ان نجثو خاشعين امام هذه العظمة ونُخضع عقولنا القاصرة مردّدين قول القديس بولس في رسالته الى اهل رومة (١١ : ٣٣) :

« يا لعمق غنى الله وحكمته ! ما أبعد احكامه عن الادراك وطرقه عن الاستقصاء ! من عرف الربّ ومن كان له مشيراً ؟ ان كل شيء هو منه وبه واليه فله المجد مدى الدهور آمين » .

ها قد بسطنا بالايجاز حقيقة معتقدنا بالثالوث الاقدس كما تسلّمناها من الرسل منذ البدء . تشهد بها كل المستندات التي لدينا من الجيل الاول والثاني للمسيح ولا أثر البتة لتولّد هذه العقيدة في زمن من الازمنة بعد الرسل كما يحلم بعض اعداء المسيحية رغماً عن الشواهد التاريخية الصادقة التي تثبت اصلها الالهي . فكيف يجوز بعد ذلك للمسلمين وعلمائهم — لو ألقوا نظرة واحدة على الانجيل والرسائل لا سيما رسائل ماربولس — ان يتهمونا بأفظع التهم وأشنعها وينسبوا الينا تثليثاً هو عبارة عن الله والمسيح الانسان والعذراء مريم . هل في وسعهم ان يذكروا اسم مسيحي واحد — او وثني — علّم هذا الضلال الفاحش وسمّاه الثالوث الاقدس ؟ لقد خرج من الكنيسة ونبذ تعاليمها منذ الجيل الثاني كثيرون منهم مرقيون في الجيل الثاني وسابلّيوس في الثالث وآريوس في الرابع وغيرهم

أنكروا الثالوث وألوهية المسيح فرذلتهم الكنيسة وتبرأت من اضاليلهم. ومع ذلك لم يدعِ أحد منهم ان الثالوث الاقدس مؤلف من الله والمسيح الانسان والعذراء امه[1] فهل يجوز بعد كل ما تقدم ان ينسب المسلمون الشرك الينا ؟

ويحسن بنا في هذا المقام ان ننبه القارئ المسلم ان المسيحيين ليسوا أفراداً قائماً كل واحد بذاته يعتقد ما يشاء وكيفما شاء. انما هم مجتمع وثيق نسميه « الكنيسة ». أسسه المسيح نفسه كما هو واضح في الانجيل واعمال الرسل ورسائلهم. وعلى كل من ينتمي الى الكنيسة ان يؤمن بايمانها والّا رذلته فهي اذاً غير مسؤولة عن أضاليل هؤلاء الخوارج ولا يجوز ان يتخذ أحد اقوالهم كأنها عبارة عن المعتقد المسيحي. ولسوء الحظ نرى المسلمين يعتمدون مراراً على مثل هذه الاقوال لينتقدوا على الايمان المسيحي. ان الايمان المسيحي هو ايمان « الكنيسة الجامعة ». وقاعدته قررتها رسمياً المجامع[2] « المسكونية » اي العامّة من اوائل الجيل الرابع (٣٢٥) في ما نسميه « قانون الايمان ». ولا يزال العلماء يشرحونه تحت اشراف رؤساء الكنيسة الجامعة . هذا دستور ايماننا وقد نبذه كثيرون من البروتستنت مدّعين

---

١) قام في اوائل الجيل السابع في مصر خاصّة بعض المتكلمين من شيعة اليعاقبة وحاولوا تفسير معتقد المتقدين بسرّ الثالوث فقالوا ان الاقانيم الثلاثة ليس لهم طبيعة واحدة كما تؤمن الكنيسة الجامعة بل لكل منهم طبيعته الخاصّة. ولم ينتبهوا انهم يثلثون اللاهوت ويقولون بثلاثة آلهة وهو الشرك بعينه. فرذلتهم الكنيسة حالاً ولم يلبث ان اضمحلّ ضلالهم الوخيم وبقي عليهم اسم «مثلثي اللاهوت» Trithéistes

٢) ان المجامع لم تضع « قانون الايمان » لأول مرّة فانا نجده بكتابات الآباء الأولين. وانما توسّعت في عرض قضاياه وشرحها

الحريَّة في الدين . فلا يمكن ان تُعتبر اراؤهم المتضاربة كمعتقد المسيحيين انما هي آراء شخصية مسؤول عنها صاحبها فقط .

. . .

ها قد بيّنا ما هو سرّ الثالوث الاقدس . وما أبعده عن الضلال الفاحش الذي ينسبه المسلمون الينا وذلك جهلًا منهم لحقيقة معتقداتنا ! وبيّنا ايضاً ان ليس في قولنا : اله واحد — جوهر واحد الهي — وثلاثة اقانيم او اشخاص أثر للتناقض ولا لمخالفة أيّة حقيقة طبيعية راهنة . وزدنا على ذلك ان لمعرفة هـذه الحقيقة طريقة واحدة وهي الرجوع **الى الوحي** اذ ان القياسات المنطقية المعتادة عاجزة عن اثبات وجودها كما انها عاجزة ايضاً عن بيان بطلانها **والسبب** في ذلك ظاهر :

لا يمكننا ان نعرف الله — خارجاً عن الوحي — الا كما نعرف **العلة** الخفيَّة من **المعلول** وصفاته . فالعالم معلول بلا شكّ لا بدّ له من علّة كافية أوجدته بكل ما فيه . فهو **مخلوق** لا بدّ له من خالق وهذا الخالق هو الله . وله كل ما نجده في المخلوقات الناطقة والغير الناطقة من الصفات الحسنة بدرجة غير متناهية من الكمال . وهكذا نثبت انه قدير عليم بكل شي . حكيم عادل لطيف الى آخر ما يمكننا ان نذكر من الكمالات . كل ذلك نصل اليه بتأملنا المخلوقات . واما **حياة الله** ذاتها فما ابعدنا عن رؤية ولو شعاع من نورها ! نحن حياة الانسان لا نتوصل الى معرفتها بذاتها فكيف بحياة الله ؟ جلّ ما هناك انه يمكننا ان نقول ان في حياة الله **معرفة**

لان المعرفة في مخلوقاته لكن هذه المعرفة في الله **غير متناهية** كذاته. وانه فيه تعالى محبَّة ايضاً لان المحبَّة في مخلوقاته الناطقة فلا بدّ ان تكون في الخالق غير انها فيه **غير متناهية**. هذا ما يهدينا اليه عقلنا. واماَّ كون هذه المعرفة « اللامتناهية » **مثمرة** وثمرتها «الكلمة» ابن الله إله مثل أبيه. واماَّ كون هذه المحبة « اللامتناهية » مع « الكلمة » مصدر الروح القدس اله مثل الآب والابن فلا شيء في الطبيعة من المخلوقات ينبئنا عنه. فلا يمكننا قطّ ان نؤكده — ولا ان ننفيه — لان هذه الحقيقة خارجة عن دائرة العلم والفلسفة واسمى من ان يدركاها. فالوحي هو السبيل الوحيد الى الوصول اليها.

ولا في امكان المسلم ان يلتجئ الى قرآنه ليرذلها لان التثليث الذي دحضه القرآن هو ذاك التثليث الغريب الفاحش المؤلف من الله والمسيح الانسان وامّه. واماَّ سرّ الثالوث الاقدس كما عرضناه فلا أثر له في القرآن.

ولعلّ المسلم يعترض اخيراً بقوله: « ان التثليث كما تشرحونه الآن ايها المسيحيون ليس التثليث الذي كان معتقد المسيحيين في زمن محمد فاحتجاجكم على ما ننسب اليكم هو باطل » — ليس في الردّ على هذا الاعتراض اقلّ صعوبة.

سنبيّن بمقال ثانٍ ان الاعتقاد بالثالوث الاقدس كما اثبتناه ليس من اليوم كما يتوهم المعترض. ولكنه يرتقي الى اول يوم من ايام النصرانية. واذا أحبّ القارئ ان يطّلع على كل ما لدينا من المستندات فليسمح لي

بان احيله الى المؤلف الكبير الذي بدأ في وضعه حضرة الاب العلّامة « ليبرتون »[1] الاستاذ الكبير في الجامعة الكاثوليكية في باريز والذي عنوانه « تاريخ عقيدة التثليث » . اما الآن فاني اكتفي بدليل واحد . لقد عقدت الكنيسة المسيحية ثلاثمئة سنة قبل الاسلام مجمعاً عمومياً في نيقية لبحث آراء واضاليل اريوس فأصدر قراراته المتعلّقة بسرّ الثالوث وسرّ التجسّد ايضاً أخذاً عن تعاليم الرسل والآباء الاوّلين . فليراجعها المعترض يتضح له ان العقيدة التي شرحناها اليوم هي تلك التي بيّن المجمع المذكور أساسها ومعناها وهي بعيدة عمّا يُنسب الينا بعد الثريا عن الثرى . وقد دوّنها المجمع في « قانون » لا نزال نتلوه شرقاً وغرباً نقول فيه :

« نؤمن باله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والارض كل ما يُرى وما لا يُرى

وبربّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور . اله من اله . نور من نور . اله حق من اله حق . مولود غير مخلوق . له وللآب جوهر واحد . الذي به كان كل شيء . . .

وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب والابن . الذي مع الآب والابن يُسجد له ويُمجّد . الناطق بالانبياء . . . »

هذا ايماننا بالثالوث منذ البدء . هـذا ما تسلّمناه من الرسل الذين استودعهم السيد المسيح الحقائق التي أراد ان يبلغونا اياها . ونكرّر ملاحظتنا في هذا الصدد ان المسلم لا يستطيع ان يبيّن بطلان هذا السرّ

---

(١) Histoire du Dogme de la Trinité, par JULES LEBRETON Professeur d'Histoire des Origines Chrétiennes à l'Institut Catholique de Paris. GABRIEL BEAUCHESSE Édeteurs. Paris.

بالحجج الفلسفية ولا ان يطلب منأ ان نثبته بالطريقة نفسها بل له فقط ان يطالبنا باثبات حقيقة الوحي الذي نعتمد عليه في ايامنا .

. . .

قبل اقفال هذا الباب يحسن بنا ان نستلفت نظر القارئ الى كيفية شرح بعضهم لسرّ التثليث اتبعوا فيه ضلالاً كان قد نشره في الجيل الثالث « سابليوس » الذي ذكرناه (ص ١٣)

ادّعى هذا الخارج ان الله واحد في **جوهره وشخصه** وانما يُسمّى الآب والابن والروح القدس بالنسبة الى صفاته الجوهرية او أعماله . فباعتباره خالقاً ومدبّراً للكون يسمّى **الآب** وباعتباره مخلّصاً وفادياً للبشر يُسمّى **الابن** . وباعتباره مقدّساً للانفس يسمّى **الروح القدس**. فليس اذاً هناك ثلاثة اشخاص بل شخص واحد **وثلاثة اسماء** . وقد حاربت الكنيسة هذا الضلال منذ ظهوره فحرمه مجمع الاسكندرية سنة ٢٦١ ثم المجامع المسكونية ولكنه لم يضمحلّ فاننا نراه منتشراً بين مسيحي العراق . وفي مجادلاتهم مع المسلمين يعتمدون عليه ليشرحوا لهم التثليث كما تقرأ مثلاً في كتاب رسالة الكندي .

وقد جدّدت هذا الضلال في الجيل الـ١٦ شيعة من البروتستنت — وهي شيعة « السوشنيان » — وغالت في شرح مبادئه الفاسدة وقد تفشى هذا الداء بين غير الكاثوليك من الشرقيين . ولعلّهم اتبعوه تزلفاً الى المسلمين ليبيّنوا لهم انه ليس من فرق جوهري بين المسيحية والاسلام . نقرأ في كتاب حديث (١٩٣٨) — وهو جزيل الفائدة في جملة من

الجائه ـــ « المسيحية في الاسلام » لحضرة الايغومانس ابرهيم لوقا (مصر) في وجه ٦٥ و٦٦ [١]

« ان الله موجود بذاته حيّ بروحه ناطق بكلمته » . . .

« وهذا الاله الازلي الوجود والحياة والنطق هو ما يعبر عنه في الديانة المسيحية بالثالوث الاقدس » . . .

« فوجوده عبارة عن صفة **الابوة** . ونطقه عن صفة **البنوة** . وحياته عبارة عن صفة **الانبثاق** » . . .

ان هذا القول عبارة عن انكار حقيقة التثليث كما أنكره سابليوس وبالتالي انكار التجسد والفداء . مع ان حضرة المؤلف يؤمن بلا شك بهذه الاسرار الثلاثة ولا حاجة الى بحث طويل لبيان ذلك :

ان **الوجود** في الله هو هو بعينه **الحياة** وهو هو بعينه **النطق** . ذلك لان الله **بسيط** لا تركيب فيه البتة وعليه ليس من تمييز بين الوجود والنطق والحياة الّا في عقلنا فلا يمكن ان تكون هذه الصفات عبارة عن الابوة والبنوة والانبثاق . فالآب هو الوجود بالذات والنطق بالذات والحياة بالذات . وكذا قلْ عن الابن والروح القدس فلا يبقى تمييز بينهم ولا يجوز اذ ذاك ان يُعتبروا ثلاثة اشخاص بل شخصاً واحداً تعدّدت اسماؤه . وليس هذا من التثليث بشيء .

---

١) راجع ايضاً البحث الرابع حيث يحاول حضرة الكاتب ان يبرهن « ان الاسلام قد تكلم عن الثالوث الاقدس كما تعلم به المسيحية »

وقد استشهد بما ورد في « المشرع » لحضرة القس سباط وهو مخالف لتعليم الكنيسة والمجامع المسكونية .

لان الاقنوم كما قلنا **شخص** حقيقي والمميز بين الاشخاص الثلاثة هو **اضافي او نسبي** فقط فالابن هو شخص صادر من **الاب** والروح القدس من **الاب والابن** والاب **ليس من احد** . فترى ان بين عقيدتنا واعتقاد المسلمين بوناً شاسعاً جداً . انّا مجمعون على القول ان **الجوهر** الالهي واحد فالله **واحد** . ونزيد على ذلك نحن المسيحيين ما استلمناه من الوحي ان هذا الجوهر **الواحد** هو في **ثلاثة اقانيم** . وهذا لا يقوله المسلمون لسوء الحظ مع انه ورد في سورة العنكبوت :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الّا بالتي أحسن الّا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل الينا واليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون »

فقد انتبهوا الى وحدانية الله في جوهره ولم ينتبهوا الى تثليث أقانيمه .

٣

في سرّ التجسد

هنا يوقفنا الخصم حالًا ويقول : « نحن المسلمين نعتقد ان المسيح نبيٌ بل « كلمة الله » ولكنَّا نأخذ عليكم ايها المسيحيون انكم **تؤلهون** هذا النبي وهو كفر واضح لا يجيزه العقل السليم »

صدق المعارض لو كنا حقيقة نؤلّه انساناً مهما كان نبياً وقديساً عظيماً لان البون بين الخالق والمخلوق لا حدّ له . ولكنَّا لا نؤلِّه انساناً انما نؤمن بان الله نفسه تنازل وصار انساناً مثلنا ولا يخفى على أحد البعد الشاسع بين هذا القول وما ينسبه الينا المعترض . ولا نقول ذلك استنتاجاً من مبادىء فلسفية او دينيّة **طبيعية** لان العلوم الطبيعية مهما سمت وارتقت عاجزة عجزًا مطلقاً عن معرفة حياة الله الباطنية . وكون الله قد اتخذ له طبيعة بشرية مثل طبيعتنا فذلك من معالم حياته الالهية التي تفوق كل ادراك وعليه لا نقول بتجسّد الله الَا لانه هو **اوحى** لنا به . وسنبيّن حقيقة هذا الوحي وانما غرضنا الان ان نبيّن ان ليس في فكرة التجسد كما نؤمن به ما يخالف الحقائق الطبيعية او المنزلة الاكيدة . فطريقتنا هنا هي كالتي اتبعناها في كلامنا على الثالوث الاقدس .

. . .

قلنا ان الله واحد في ثلاثة أقانيم ولا لاحد ان ينكر ذلك بديهياً بل

إن رأى ان ينفيه فعليه ان ينفي صحة الوحي الذي يُسند اليه ان استطاع الى ذلك سبيلاً . ونزيد الآن على هذا القول بالتثليث:

ان الاقنوم الثاني — **وهو الابن** — اتخذ جسداً ونفساً كجسدنا ونفسنا في أحشاء العذراء مريم بـلا زرع بشريّ بل بقوة الروح القدس فصار انساناً حقيقياً ولم **يزل الهاً** كما كان فهو اذاً **اله وانسان معاً** .

فهل في هـذا القول تناقض او مخالفة للمبادئ العقلية الراهنة ؟ فان هذا الاله المتجسّد **شخص واحد** الهيّ له مع طبيعته الالهية طبيعة بشريّة كاملة ولكن هذه الطبيعة البشريّة **لا شخصية بشرية** لها .

وكيف يمكن ذلك ؟ قلنا ولا نزال نقول : نحن امام اسرار تفوق ادراكنا ولكن يمكنّنا ان نبيّن — قبل اثبات صحّة الوحي بها — ان ليس فيها تناقض .

برهنّا في الفصل الثاني ان الشخص غير الطبيعة فقد **تتعدد الاشخاص والطبيعة واحدة** — هذا هو سرّ الثالوث الاقدس — وهنا **تتعدد الطبيعة والشخص واحد** : هذا هو سرّ التجسّد .

قد اتخذ ابن الله طبيعة بشريّة برزت الى الوجود في شخصه الالهي فهي **غير مستقلة** بذاتها ووجودها بل هي موجودة في شخص ابن الله ولا وجود لها الّا به وفيه كما يشرح القديس توما اللاهوتي الملفان الكبير الشهير . فاذا كانت غير مستقلة بوجودها فهي اذاً بـلا **شخصية بشرية** فشخصيتها هي شخصيّة ابن الله اذ انها به وله . ولذلك نقول ان ابن الله

المتجسد — وهو شخص واحد واسمه يسوع المسيح — له طبيعتان الهية وبشرية. هذا سرّ غامض كما قلنا الَّا انه يمكننا باستعارة الأَمثال ان نقرّبه الى فهمنا.

. . .

تؤمن ايها المسلم ان الله قادر ان يحيي الموتى وقد اقام بعضهم فعلاً. فاعتبر جسد احدهم وهو ميت مثلًا جسد لعازر الذي أقامه السيّد المسيح (يوحنا ١١). انه جوهر ماديّ — والجوهر والطبيعة شيء واحد كما سبق وقلنا ولا يتميّزان الّا نظريًّا — هذا الجوهر موجود **مستقل في ذاته** فهو إذن « موضوع » كما يقول الفلاسفة والموضوع للاشيا. جمادات كانت ام حيوانات كالشخص لذوي النطق. ثم اعتبر من جهة أخرى نفس ذاك الميت لعازر فانها لا تزال حية. وهي جوهر روحاني قائم في ذاته مستقلّ بوجوده فله نوع من الاقنومية او الشخصية البشرية. فماذا يفعل الله إذ يقيم هذا الميت؟ انه بقدرته الغير المتناهية يُعيد الى النفس جسدها فيصبح المجموع المركَّب من هذين الجوهرين الروحاني والماديّ **شخصاً** واحدًا بشريًا حيًّا ولا يعود الجوهر الماديّ **موضوعاً مستقلا بذاته** بل هو قائم في ذات الجوهر الروحاني. فلك في ذات شخص واحد عنصران جوهريّان مختلفان أسمى وأدنى. والأَسمى — على ما يقول مار توما — يُولي الأَدنى وجوده ويشركه بشخصيته. هذا مثال — وان كان بعيدًا — يفسّر نوعاً اتحاد الاقنوم الثاني الالهي بطبيعة بشريَّة وكيف يولي الاقنوم هذه الطبيعة التي لا شخصية بشريَّة لها شخصيته الالهية.

فلا تناقض اذاً في تعدّد الطبيعة في المسيح ووحدة شخصه الالهي ·

· · ·

أتعترض قائلاً : « لو تجسّد الله للزم الاقانيم الثلاثة التي تزعمون ايها النصارى انها فيه ان تتجسّد ايضاً اذ ان الله واحد » ·

لا يصعب الجواب · صدقت يا هذا لو كنّا نقول بتجسّد **الطبيعة الالهية** — ولا ندري ماذا يكون اذ ذاك معنى التجسّد — فبما انها واحدة لزمها ان تتجسد في الثلاثة معاً · ولكنّا نقول ان **الاقنوم** الثاني تجسّد أي خصّ **بشخصه** الالهي طبيعة بشريّة · وبما ان هذا الشخص متميّز عن الاثنين الآخَرَين فما اختصّ بـه لا يختص بالآخرَين · فيمكن الابن اذاً ان يتجسّد دون الآب والروح القدس · كما انه من الممكن ان يتجسّد الآب او الروح القدس دون الابن ·

· · ·

أيزعم المعترض ايضاً ان التجسّد **يلحق تغييرا** بالباري تعالى مع ان الله غير قابل التغيير اذ انه الكمال الغير المتناهي — ان هذا الزعم باطل · ليس التجسد مزيجاً من اللاهوت والناسوت حتى يحدث في كلا العنصرين تغييرًا كما تصوّر بعض الخوارج فقالوا ان المسيح واحد بشخصه وطبيعته فرذلتهم الكنيسة · انما التجسّد هو إيجاد طبيعة بشريّة كاملة خُصّت بشخص ابن الله · فالتغيير يلحق اذن تلك الطبيعة التي **لم تكن ثم كانت** · ولا يمسّ الطبيعة الالهية البتة كما ان الله لا يتغيّر اذ يخرج الكائنات

من العدم الى الوجود بخلقه اياها[1] . وقد أعطانا القديس اغوسطينوس اكبر ملافنة الكنيسة مثالًا بديعاً يبيّن لنا كيف يتجسّد ابن الله ولا يتغير لاهوته :

يمكننا في فعل الفهم ان نعتبر كلمتين كلمة **باطنة** وكلمة **خارجية** .

فالكلمة **الباطنة** هي الفكر الذي به نفهم ماهيّة الشيء قبل ان تتبادر الى الحسّ الخيالي أصوات الالفاظ التي نعبر بها عنه . والكلمة **الخارجية** هي ذلك اللفظ الذي نعبر به عن الكلمة **الباطنة** اي عن فكرنا . فاللفظ اذا كان مطابقاً تمام المطابقة للمعنى — وكم تعجز الالفاظ عن ذلك ! — لا يغيّر شيئاً من كنه الكلمة الباطنية سوى انه يجعلها ظاهرةً محسوسة . هكذا الطبيعة البشريّة التي اتخذها ابن الله « الكلمة الازلي » فانها كلباس خارجي يجعله منظوراً ولا يمسّ شيئاً من طبيعته الالهية . ومن البديهي ان هذه الطبيعة البشرية لا ترينا الطبيعة الالهية كما يراها الطوباويّون في السماء . وانما تعرّفنا صفاتها السامية بقدر ما يمكن المخلوق ان يتسنى له معرفة الخالق في هذه الدنيا . وليس تفسير القديس اغوسطينوس سوى صدى ما قاله مار يوحنا الانجيلي في بدء انجيله (١ : ١—١٤) .

« في البدء كان **الكلمة** و**الكلمة** كان عند الله و**الكلمة** كان الله .

---

١) وبهذه المناسبة يحسن ان ننبّه القارئ ان لا يحمل بعض عبارات الخطباء خاصّةً على غير معناها . فانهم يقولون مثلًا في كلامهم عن السيّد المسيح « الله وُلد او جاع او تألم او مات » الخ فليس المراد ان هذه الأفعال صدرت عن الطبيعة الالهية ولكن المعنى المقصود هو انها مختصة باقنوم الحي وان كانت صادرة عن طبيعة بشريّة هي له إذ ان « الأفعال تنسب الى الشخص » لا الى الطبيعة .

كلّ به كُوّن وبغيره لم يكوّن شيء مما كوّن . . . والكلمة **صار جسداً** وحلّ فينا . وقد أبصرنا مجده مجد وحيد من الآب مملوءاً نعمةً وحقاً » .

فابن الله الوحيد يسمّى **الكلمة** لانه مولود من الآب كما يُولد الفكر من العقل (راجع ص ٢٠) وقد تجسد اي أخذ جسماً حياً وهو باقٍ **كلمة الله** والله ، كما يبقى الفكر في العقل وان برز خارجاً عنه بجسم الالفاظ .

. . .

وهناك اعتراض آخر أتى به شلسيوس الفيلسوف الوثني في الجيل الثاني ــ وقد كان من الدّ اعداء النصرانية في ذاك العصر ــ وجدّده ابن حزم من علماء المسلمين في الجيل الحادي عشر للمسيح وظنّ ان فيه صعوبة لا يمكن حلها . فادّعى الخصمان « ان التجسد ضرب من المحال لانه **تذلل** لا يليق بجلاله عزّ وجلّ » .

لا نعجب من ان وثنياً لا يعرف الاله الحقيقي اعترض مثل هــذا الاعتراض ولكن العجب كل العجب من ان مؤمناً بالله يجاريه . وما كنّا لنتوقف ملياً في الردّ عليه لولا انها فرصة سنحت لايضاح جملة حقائق تزيد القارئ معرفة بالدين المسيحي وفهماً لحقائق اسراره .

ليس التجسّد **تذللا** يحطّ من شأنه تعالى بــل هو **تنازل** عجيب من العزّة الالهية الفائقة عظمتها كلّ حدّ وتصوّر .

التذلل ان يتخذ الكبير أخلاق ورذائل من هو دونه منزلةً وشرفاً او فضيلةً ليتمثل به طمعاً باكتسابه الى مصلحته او ارضاء لشهوته . واما

التنازل فهو ان يقترب الكبير وهو على كبره وعظمته وفضله من الصغير ليأخذ بيده رحمة وانعطافاً فيرفعه ويحسن حاله . هذا لعمر الحق من أجمل الاعمال واسماها . وكلما تناءى البعد بين الكبير والصغير كان التنازل أعظم وأجدر بالاعجاب . فمن يسمّي تذللاً صنيع القديس لويس ملك فرنسا وغيره من الامراء والقديسين والملوك الاتقياء اذ كانوا يغسلون ارجل الفقراء والمساكين ويخدمونهم ؟ هذا فعل تواضع ومحبة لم يكن يعرفه الاقدمون وما من عاقل الّا ويمتدحه . بعكس ذلك صنيع أمير عظيم ينسى منزلته السامية ومقامه الرفيع ليقترن براقصة . هذا تذلل يحطّ من شأنه . فالتجسد هو تنازل الهي اراد به الرب ان يتقرّب الى الانسان ليقدّسه ويرفع شأنه ويجعله ابناً له . فهو اذاً من اجمل أعمال الله وأجدرها بالاعجاب والثناء .

فليس اذاً اعتراض شلسيوس وابن حزم في محله فالتجسد أهل لله . بل نزيد على ذلك بقولنا : ان كان التجسد **ممكناً** — وهذا لا نستطيع ان نعمله ما لم يوحه الله — فهو **يليق جداً** به تعالى وسبب ذلك ظاهر

الله هو **الجود** بالذات ومن طبع الجواد البذل والبذل ليس فقط مما **عنده** بل ايضاً مما **له** اي بذل نفسه . فبالتجسد يعطينا الله ذاته اذ يظهرها للبشر فيؤانسهم ويعزيهم ويستمع طلباتهم ويشاركهم في احزانهم وأفراحهم ويجود عليهم بكنوزه الروحية والمادية . بكلمة : انه يؤاخيهم مؤاخاة لا مثيل لها .

الله هو **القدرة** بالذات . خلق العالم من لا شيء . بكلمة غير اننا لا نرى ذلك باعيننا انما نستنتجه علمياً من تأمل الكائنات والبحث عن عللها

فالبحث يؤدينا الى اثبات علة العلل كلها وهي الله . ولكنا بالتجسد نتحقق القدرة الالهية برؤيتنا الاله المتجسد اذ ان اتحاد اللاهوت بطبيعة بشرية كاملة حتى يصبح واياها شخصاً واحداً اقوى دلالة على قدرة الله الغير المتناهية من الخلق نفسه . وانه ليجدر بجود الله ان يعرّفنا ذاته وقدرته لنحبه ونثق به .

الله **هو الحق** بالذات . هو النور الساطع الذي يضيء على كل انسان . وهذا النور الالهي الغير المتناهي أحبّ الامور اليه ان يبدّد ظلمات الجهل والضلال وهل يمكن ان تتلألأ أشعته البهية اكثر منها في سرّ التجسد اذ يرى المؤمن الحقّ بالذات بهيئة محسوسة يعلّم باقواله وامثاله وكيانه .

ولا حاجة الى الاطالة ففيما قلنا الكفاية ليتَّضح لكل عاقل عظم النعمة التي يولينا الله بتجسد ابنه . فترى ان التجسد لا يحطّ بمنزلة الله بل هو أنسب ما يمكنه تعالى ان يبرهن به عن جوده وحبه وقدرته وحكمته . وتزداد هذه الحقيقة جلاء اذا ما اعتبرنا غاية التجسد .

. . .

يعلّمنا الايمان المسيحي ان غاية التجسد الاولى هي **الفداء** الذي بـه استحق لنا ان نصبح **ابناء الله** . وهذه الغاية وحدها تبرّر ـــ كما سترى ـــ تجسد ابن الله وتبيّن عظم النعمة التي منَّ بها على الجنس البشري حباً وتفضلاً . بل يصبح التجسد اذ ذاك واجباً وليس فقط لائقاً بجوده تعالى .

والغاية الثانية هي ان يعلّم ابن الله الوحيد اخوته الذين تبنأهم ابوه السماوي كيف ينبغي لهم ان يعيشوا عيشة تليق بأبناء الله . أليست هذه الغاية أهلاً بكرم الله وحكمته السامية ؟

ولعلك تقول : « لا يحتاج الانسان الى اله متجسّد ليعلم كيف يجب عليه ان يعيش حتى تكون حياته لائقة بمن اتخذه الله ابناً له . كفى بالله ان يرسل اليه انبياءه كما صنع في الماضي . والانبياء يعلمونه بأمثالهم واقوالهم كل ما يهمّه معرفته لتقديس حياته » .

أجل بوسعه تعالى ان يُطلعنا على كل الحقائق التي يريد ان نعرفها بواسطة انبيائه . بوسعه ان يرينا القداسة ممثّلة بشخص اوليائه الابرار . ولكن شتّان بين تعليم الرسل والانبياء وتعليم الابن الوحيد الاله . وشتّان ما بين مثل القديسين ومثل الاله المتجسد .

لا يخفى على أحد ان الحقيقة لها تأثير أعظم اذا خرجت من فم انسان له سلطة عالية . اعتبر انساناً حقيراً يقول : « ساعد الفقير لان ذلك مرضي لدى الله » . واعتبر اميراً عظيماً ينادي بهذه الحقيقة عينها امام رعاياه : أفما تجد فرقاً عظيماً في تأثير كل واحد منهما على سامعيه ؟ ومن اين هذا الفرق ؟ لا نكير انه نتيجة التفاوت في مقام القائلين فسموّ شخصية الأمير تولي كلامه قوّة لا يبلغها كلام الفقير . وعليه مهما كان النبي عظيماً فما احقره بالنسبة الى ابن ربّه ! عندما يقول هذا « كونوا رحماء كما ان اباكم السماوي رحوم » تُرى افما تهتزّ كل جوارح الانسان المحب للفضيلة ؟ ولا يؤثر كلام نبي في سامعيه مثل هذا التأثير .

وابلغ واعظم من ذلك تأثير المثل اذا بدا من ذوي السلطان الرفيع والمنزلة العليا سواء كان للخير ام للشرّ .

ينادي نبيّ بوجوب الزهد وفائدة التجرّد من حبّ اموال هذه الدنيا ويؤيد كلامه بمثله . وفعلاً قام انبياء واعظين بكلامهم وامثالهم . فهل أفلحوا ؟ جاء المسيح الذي نعتقد نحن المسيحيين انه ابن الله ووُلد في الفقر

المُدقع وعاش في الفقر ومات في الفقر . فقام الملايين من أتباعه وهجروا القصور وتبرّعوا باموالهم للفقراء وقضوا حياتهم في خدمة المساكين وعيالة المرضى وتهذيب المتوحشين في البلدان القاصية . هذه قوّة مثله .

كم مدح الانبياء بمثلهم وكلامهم فضيلة العفة والطهارة ولكن اين العذارى والمتعففون الذين اتّبعوا آثارهم ونصائحهم ؟ جاء المسيح ابن الله مثال الطهارة والعفّة . فقام بعده الملايين من المتبتّلين والعذارى وضحوا بكل ملاذّ الدنيا لينقطعوا لخدمة الله والقريب اقتداء بمثل ابن الله .

كم مدح الانبياء الصبر في الشدائد وكانوا مثالاً لهذه الفضيلة ومع ذلك نرى قلّة تأثير هذا المثل في شعب الله قبل المسيح . فان بني اسرائيل لأدنى مصيبة او نائبة تحلّ بهم كانوا يتذمرون على موسى وانبياء الله . جاء المسيح ومع ان السعادة واجبة له اراد ان يتخلّى عنها مدّة ويتحمّل كل انواع العذابات واشدها هولاً . فما كان تأثير مثله ؟ اسمع قول مار بولس وقد ردّده الملايين من المسيحيين الاتقياء :

« حاشا لي ان افتخر الّا بصليب يسوع المسيح الذي به صُلب العالم لي وانا صُلبتُ للعالم » (غلاطية ٦ : ١٤)

فاحتملوا بصبر وفرح كل مصائب هذه الدنيا حتى الموت حباً بالمسيح

كان جلّ اجتهاد الانبياء في القديم حفظ الشعب الاسرائيلي — وكان وحده يعبد الاله الحقيقي — في الطاعة لله ولوصاياه وكانوا أجمل مثال لهم . فهل نجحوا كثيراً ؟ جاء المسيح وقال :

« نزلت من السماء لا لاعمل مشيئتي بل مشيئة الذي ارسلني وأُتمم عمله » (يوحنا ٤ : ٣٤)

وهذه المشيئة تمّمها حتى الموت . فلما كان ينازع في البستان كان

يصلّي لتعبر عنه كأس الالام ولكنه كان يردف حالاً « لا تكنْ مشيئتي بل مشيئتك » (مرقس ١٤ : ٣٦) وعلى الصليب قبل ان يسلم الروح جدَّد تسليمه لارادة ابيه منادياً بصوت عظيم . « يا أَبتِ في يديك استودع روحي » (لوقا ٢٣ : ٤٦) .

هذا المثل اتّبعه الملايين من المؤمنين بلاهوت المسيح حتى في ايامنا ولما ارادوا ان يلزموهم على الكفر بالله فضلوا الموت في العذاب على مخالفة ارادة الله

قلّ ما ورد في اقوال الانبياء من الإشادة بحبّ القريب الغريب مع ان الوصية عند اليهود كانت : « أحبب الرب الهك . . . وقريبك كنفسك » ولكنهم مع تمادي الايام حصروا القسم الثاني منها في محبة ذوي القربى وبني أمّتهم فقط . ظهر المسيح ونادى بواجب حبّ كل انسان وان غريباً وان عدوّاً . وقد كان اوّل من تمّم بالفعل ما أوصى به فغفر لاعدائه من أعلى الصليب المعلّق عليه وعذرهم لدى أبيه (لوقا ٢٣ : ٣٤) وها نحن حتى الان نرى الشهداء فضلاً عن العدد العديد من المسيحيين الاتقياء يقتدون بمثله ويصلّون لاجل مضطهديهم ويغفرون لهم بل يموتون لأَجلهم .

هذا تأثير مثل السيد المسيح وليس لمثل الانبياء القديسين هذا المفعول لانهم لا يزالون بشراً ومهما سمت قداستهم فلا بدّ من ان يبقوا ناقصين . ولذلك شاء الله ان يقدّم لنا مثالاً كاملاً من كل وجه يتجلّى فيه كماله الالهي ليتمكن المسيحي لدى النظر اليه من تحقيق الوصية الالهية القائلة : « كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي كامل » (متى ٥ : ٤٨) .

وقبل الانتقال الى الكلام على سرّ الفداء يجب ان ننبّه القارئ الغريب عن ايماننا ما هو معنى عبادتنا للسيّد المسيح واكرامنا لامه العذراء .

. . .

ان الاكرام يوجه الى شخص الانسان لا الى اجزاء كيانه . فاني عندما أُقبل يد ابي ليس موضوعي اكرامي ذاك العضو اللحمي الذي أمسّه انما هو شخص ابي الذي له اليد التي قبّلتها . تلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان . فاذا كان السيّد المسيح الهاً وانساناً معاً كما نعتقد **وشخصاً واحداً الهياً** — اذ ان البشرية ليس لها فيه شخصية بشرية — وجب عليَّ ان أؤدّي لشخصه الالهي واجب الاكرام الذي يستحقه ويتطلبه شخص الهي اي الله بعينه فاسجد له وأعبده كما اعبد اباه السماوي .

ويمكننا ايضاً بالنظر الى طبيعته البشريّة ان نلتجئ اليه كوسيط بيننا وبين ابيه السماوي ونسأله ان يتوسّل الى ابيه لاجلنا فان وساطته لا تُردّ وقد فعل ذلك مراراً في حياته على الارض كما نرى في الانجيل .

وكذلك يلزمنا ان نسمّي العذراء مريم امّ السيّد المسيح امّ الله لان الأمومة تُنسَب الى الشخص .والشخص الذي ولدته العذراء مريم هو شخص ابن الله فهي اذن بكل حقيقة امه وان لم تلد له لاهوته بل طبيعته البشريّة فقط . وما مثلها في ذلك الّا مثل امهاتنا فانها لا تعطينا نفسنا الناطقة . انما هي مصدر اجسادنا والله يخلق النفوس الروحية لتتحد بتلك الاجسام . ومع ذلك نطلق على المرأة التي وُلدنا منها اسم « الأمّ » وبكل صواب لان الامومة تُنسب كما قلنا الى الشخص .

وامّا اكرامنا للعذراء مريم فانه الاكرام الذي نؤديه **لمخلوق** لانها **شخص بشري** لا الهي مثل ابنها وان كانت امه . ولكن هذا الشخص البشري تفوق منزلته منزلة كل المخلوقات البشرية والملائكية الكائنة

والممكنة ايضاً اذ لا يمكن ان نتصوّر مقاماً أرفع من مقام امّ الله . وعليه يجب ان نكرّم العذراء إكراماً يفوق اكرامنا لكل القديسين واولياء الله . وهو عائد الى شخص ابنها كما هو واضح . ولكننا لا **نعبدها** بحصر المعنى كما يتهمنا بعض الاخصام زوراً وبهتاناً .

. . .

هذا معتقدنا بسرّ التجسد بسطناه باختصار . فايّ تناقض لحظته ايها القارئ اللبيب في كل ما عرضناه عليك ؟ وأيّة حقيقة فلسفية او علميَّة راهنة وجدتنا قد خالفناها ؟ **لسنا نؤلّه انساناً** كما يتصوّر المسلمون انما نؤمن — استناداً الى وحي حقيقي نبرهن عنه بادلّة راهنة — **ان الله** (الاقنوم الثاني من الثالوث) اتّحد بجسد ونفس بشريّين وظهر لنا . فعبادتنا موجهة **الى الله متجسداً** وليس في التجسد كما فسَّرناه ما يبخس اللاهوت حقوقه . ولا يجوز للمسلم ان ينبذ هذه الحقيقة ما لم يتيقَّن ان البراهين المثبتة صحة هذا العمل الالهي العجيب لا قوّة لها . وعلى كل حال ليس له البتة ان ينسب الينا الشرك او الكفر . اذ اننا لا نعبد الّا الهاً واحداً قد ظهر بشخص اقنومه الثاني متَّحداً بطبيعة بشرية كطبيعتنا .

٤
سرّ الفداء

هذه ايضاً مشكلة ثالثة تبعد المسلمين عنا فيجب حلها . ولا حاجة الَّا الى بسط ما نعتقده حتى يرى كل منصف ان ليس فيه مـا يستوجب الاستنكار بل بالعكس ما يقضي بالاعجاب والشكر لله .

نبدأ بالجواب على اعتراض ورد في كتاب « حياة محمد » (ص ٩) لمؤلفه حضرة محمد حسين هيكل إذ قال :

انه لا يمكن التوفيق بين عقيدة الاسلام وعقيدة المسيحية « فان المبدأ الذي قرّره الاسلام من ان لا تزر وازرة وزر أخرى وان كلّ امرئ يوم القيامة مجزيّ باعماله إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ » يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن ويجعل منطق الاسلام من الدقة بحيث لا تجدي معه محاولات التوفيق مع **التناقض** الواضح بين **فكرة الافتداء** وفكرة **الجزاء الذاتي** « لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً » .

غريب لعمر الحق جهل المسلمين وأدبائهم وعلمائهم بمعتقد النصارى : ولو كلفوا انفسهم مطالعة ايّ كتيّب من كتب « التعليم المسيحي » التي تتداولها أيدي صغارنا لتحققوا حالا انهم ينسبون الينا ما نحن منه براء . فمتى أنكر المسيحيون « الجزاء الذاتي » ؟ فان كتب العهد القديم والعهد

الجديد المنزلة طافحة بالآيات التي تثبته . ولذلك قبل ان نبيّن حقيقة سرّ الفداء يجب ان نثبت حقيقةً الجزاء الذاتي في معتقدنا المسيحي . واليك بعض شواهد من الانجيل نظنها كافية لاقناع كل من يحبّ الحق .

اول كلمة قالها يسوع لمَّا ابتدأ يكرز ويدعو الشعب اليه هي :

« **توبوا** » فقد اقترب منكم ملكوت الله (متى ٤: ١٧) .

وقد كرَّر هذه الدعوة الى التوبة مرارًا . فالتوبة وأعمالها الشاقة شرط الدخول في ملكوت الله(او السماوات والمراد واحد) . اما ملكوت الله فهو كناية عن ملك الله في هذه الدنيا[1] على النفوس التي تطيعه حتى تستحق ان تتمتع بسعادته في الآخرة في ملكوته السماوي . فالتوبة اذًا واجبة حتى يحظى الانسان بالسعادة الابدية : اليس هذا **الجزاء الذاتي** ؟

وصرّح ايضاً يسوع بوجوب تتميم ارادة الله والّا لا تفيد الصلاة والعبادة :

« ليس كل من يقول لي يا ربّ يا ربّ يدخل ملكوت السماوات لكن الذي يعمل ارادة ابي الذي في السماوات هو يدخل ملكوت السماوات » (متى ٧ : ٢١)

فالسماء اذن جزاء عمل ارادة الله : أليس هذا **الجزاء الذاتي** ؟

وسأل شابّ يسوع يوماً (متى١٩ : ٣١) : « ماذا أعمل لأرث الحياة الابدية . » فقال له : « ان كنت تريد ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا » ثم ذكرها له أو أهمها .

فحفظ الوصايا شرط لا بدَّ منه للدخول الى السماء . وليس حفظ

---

١) كان يظن اليهود ان السيد المسيح يملك على الارض ملكاً زمنياً .

الوصايا كلها أمراً سهلاً : أليس جزاء هذا الحفظ جزاءً ذاتياً ؟

وحفظ الوصايا متحتم على الانسان مهما كلفه من المشاق حتى الموت (مرقس ٩ : ٤٢—٤٧) .

« ان شككتك يدك فاقطعها . فخير لك ان تدخل الحياة وأنت أقطع من ان يكون لك يدان وتذهب الى جهنمَ الى نار لا تُطفأ حيث لا يموت دودهم ولا تُطفأ نارهم . . . »

وكذلك ان شككتك رجلك او عينك (٤٤—٤٧) فمعنى العبارات مجازي كما لا يخفاك وهو انه يجب الابتعاد حتى عن اسباب الخطيئة وان كانت عزيزة لديك كما هي عزيزة عند الانسان يده او رجله او عينه . فلا شيء يعفينا من حفظ الوصايا والّا هلكنا : أليس في كل هذا تصريح بالجزاء الذاتي ؟

راجع ايضاً الامثال العديدة التي كان المعلم الالهي يضربها ليفهم الشعب ضرورة العمل الذاتي للخلاص كمثل المزارع او مثل الصيادين (متى ١٣) وكمثل العملة ومثل العذارى العشر ومثل العبيد والوزنات (متى ٢٥) الخ . وبسبب اهمال العمل الذاتي حلَّ الخراب باورشليم (لوقا ١٩ : ٤١ — ٤٤) .

ولكن اسطع من الشمس في رائعة النهار الحكم الذي يصدره السيد المسيح في منتهى العالم اذ يجلس ليدين الاحياء والاموات وهو مبني على الاستحقاق الذاتي . فانه يقيم الابرار عن يمينه والاشرار عن يساره (متى ٢٥ : ٣٤ — ٤٦) ثم يقول للذين عن يمينه :

« تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملك المعدّ لكم منذ انشاء العالم . لاني

جعت فاطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني ومريضاً فعدتموني ومحبوساً فاتيتم اليَّ . فيجيبه الصديقون : ومتى رأيناك غريباً فآويناك . او عرياناً فكسوناك . ومتى رأيناك مريضاً او محبوساً فأتينا اليك ؟ فيجيبهم الملك : الحقّ اقول لكم كلّما فعلتم ذلك بأحد هؤلاء الصغار في فعلتموه » .

ثم يلتفت الى الاشرار الذين عن يساره ويقول لهم :

« إذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدَّة لابليس وملائكته لاني جعت فلم تطعموني وعطشت ولم تسقوني . . . الخ »

فيسأله الاشرار متى كان ذلك فيجيبهم :

« الحقّ اقول لكم كلما لم تفعلوا ذلك باحد هؤلاء الصغار فبي لم تفعلوه » .

هذا هو **الحكم الاخير** : « فيذهب هؤلاء الى العذاب الابدي والصديقون الى الحياة الابدية » .

وما هي **حيثيات هذا الحكم** ؟ ان الابرار يجازَون لانهم **استحقوا** الجزاء لاعمال الرحمة التي اوصى بها الله فأتوها . والاشرار يُعاقَبون لانهم اهملوها فاستحقوا العقاب : **اليس هذا الجزاء الذاتي** ؟

وعلى هذا المنهاج سار الرسل في كرازتهم (راجع سفر «اعمال الرسل» ورسائل بطرس وبولس ويوحنا الخ) . والكنيسة في تعاليمها (راجع المجمع التريدنتيني الجلسة ٦ والبند ٤) . وانك لن تجد على الارض ديانة تحث على العمل والاستحقاق الذاتي مثل الديانة المسيحية . فكيف فات حضرة الكاتب المذكور هذا القانون الاساسي من ايماننا فذهب الى انه

ينفي الجزاء الذاتي ؟

لعله تأثر من بعض آراء للكتبة البروتستنت القدماء اذ قالوا « ان الايمان يكفي للخلاص ولا حاجة الى الاعمال » . فأوهموا ان الجزاء الذاتي لا اعتبار له عندهم . ولكن قولهم هذا جاء ١٥٠٠ سنة بعد المسيح وكرازة الرسل وهو منافٍ لتعليم الكنيسة الجامعة الذي هو وحده حجّة في مثل هذه المسائل . ثم لا أظن ان هؤلاء البروتستنت ينكرون الجزاء الذاتي لكنَّهم يحصرون استحقاقه فيما يسمّونه « الايمان » وقد عجزوا عن تحديده . وعلى كل حال فانهم تركوا الآن رأيهم هذا جانباً وأخذوا يقولون بوجوب الاعمال الصالحة كباقي المسيحيين وفقاً لتعليم الرسل مثل كلام مار يعقوب القائل في رسالته (٢ : ١٤ — ١٧) :

« ما المنفعة يا إخوتي اذا قال أحد ان له ايماناً ولا أعمال له ؟ العلَّ الايمان يستطيع ان يخلّصه ؟ . . . ان الايمان بغير الاعمال هو ميّت في ذاته » .

فالجزاء **الذاتي** للاستحقاق **الذاتي** عقيدة أساسية في الدين المسيحي . وكيف التوفيق بينها وعقيدة الفداء ؟ لا يصعب الجواب على من فهم معنى الفداء ومفعوله الجوهري .

. . .

لا يعفينا الفداء من العمل والاجتهاد والجهاد في سبيل الله انما يولي عملنا هذا جزاء لم يكن ليطمع به . فانه يمنحنا — اذا أتممنا ارادة الله على الارض — ان نتمتع يوماً بمشاهدته في السماء ونشترك بسعادته نفسها وهو لعمري جزاء يفوق كل تمنيات الطبيعة المخلوقة . لان الانسان — وكذا

قل عن الملاك — لا يمكنه اذا بقي في حالته **الطبيعية** . وهي حالة عبودية بالنسبة الى الله خالقه وربه — ان يتمنى جزاء على طاعته لله سوى سعادة طبيعية كالتي نحنّ اليها ونذوقهــا احياناً على الارض في ساعات راحتنا وهنائنا . واما مشاهدة الله والسعادة التابعة لها فهما من حظ **ابناء الله** وهذا هو الحظّ الذي استحقه لنا السيد المسيح اذ افتدانا . فترى ان الفداء لا يمسّ شيئاً من واجبات الاستحقاق الذاتي بل يجعلها بالعكس أوسع نطاقاً واشدّ الزاماً .

واليك الآن تفصيل ايماننا بالفداء نلخّصه بسلسلة قضايا لا يصعب فهمها :

١ً نؤمن ان الله خلق ابوينا الاولين وتبنّاهما ونسلهما . اعني انه لم يتركهما في حالتهما **الطبيعية** اي حالة العبيد بل رفعهما — وايّانا — الى حالة **فائقة الطبيعة** وهي حالة **ابناء الله** . ولذلك حلّى نفسهما بمواهب الروح القدس التي نُسمي مجموعها « النعمة » للدلالة على انها مجانيّة وانها تولي الانسان الحاصل عليها حظوة في عين الرب اذ انها تجعله **شبيهاً** بـه تعالى كالابن بأبيه بقدر ما يمكن ان يكون الانسان شبيهاً بخالقه .

وبقوة هذه النعمة يتمكن الانسان ان يأتي اعمــال قداسة تؤهله للاشتراك يوماً بسعادة الله بالذات .

ففي هذه الحالة السامية والفائقة كل مقتضيات الطبيعة البشرية بل الملائكية خلق الله آدم وحواء ووعدهمــا ن ينقلهما — ونسلهما ايضاً — الى مقرّ سعادته في السماء بلا موت بشرط ان يثبتا على طاعته .

٢ً نؤمن ثانياً ان ابوينا بإغراء الشيطان خالفا وصية الله — وكان قد نهاهما عن الاكل من ثمار شجرة من اشجار الفردوس الذي وضعهما فيه — وبمخالفتهما لوصيته تعالى فقدا نعمة البنوة وكل ما يلحقها من العطايا المجانية الفائقة الطبيعة فاصبحا عرضة للموت والعذاب وحُرما حق التمتع بمشاهدة الله وسعادته بعد الموت .

وقد اصابت هذه الخسارة التي لا تُقدَّر ذرّيتهما ايضاً . فنولَد نحن محرومين من نعمة التبني وسعادتها . وما مثَلنا في ذلك الّا كمثَل ملك تبنَّى رجلًا وامرأته من عبيده وجعلها في قصره ووعدهما ان يتبنَّى ايضاً ابناءهما بشرط ان يستمرّا على طاعته والّا طردهما من وجهه . ولمّا لم يحفظا له عهد الامانة اخرجهما من قصره فعادا الى حالتهما الاولى ولكن بوصمة التمرّد والعصيان . فمن يلوم الملك على عمله ؟ كان عمله عادلًا لا غبار عليه . فكم بالحري يجب ان نقدّس عمل الله عزّ وجلّ وتصرّفه مع ابوينا وذرّيتهما !

٣ً نؤمن ثالثاً ان الله كان قادرًا ان يترك الجنس البشري في هذه الحالة التاعسة حالة العبوديَّة تحت سيطرة الشيطان . غير انه من فرط جوده ورحمته لم يشأ ان يبقى الانسان فيها فوعد ابوينا اذ طردهما من الفردوس ان يرسل اليهما **مخلصاً** من نسلهما يفدي الجنس البشري ويُقيل سقطته ويُعيد اليه نعمة التبني وسعادتها . ولكنه حكم عليهما وعلى ابنائهما بالموت الذي كان قد اعفاهما منه . وبالشقاء والاوجاع في هذه الدنيا ليستحقا الجزاء الابدي بصبرهما .

٤ً نعرف ايضاً من الايمان ان الله كان بوسعه الّا يطلب من الجنس

البشري تعويضاً عن خطيئته حتى يردّه يوماً الى حالته الاولى . فلم يشأ بل اراد ان نقدّم له تكفيراً يليق به . ومن يجسر ويسأله سبب حكمه هـذا ؟

وهذا التكفير قد كان بامكانه تعالى ان يطلبه جزئياً بقدر طاقة البشر غير انه في سامي حكمته وعدله أبى الّا ان يكون التعويض كاملاً **وبقدر الاساءة** التي ارتكبها الانسان نحو ربّه . وهو في كل ذلك حرّ ليس لاحد ان يطالبه بالشروط التي يضعها لعطاياه الفائقة .

ولكن من اين للبشر ان يقدّموا له تكفيراً مساوياً لخطيئتهم؟ ان خطيئة واحدة **بالنظر الى جلال الله الغير المتناهي** هي إهانة له **غير متناهية** . ذلك لان الإساءة تعظم بقدر عظمة الشخص المهان فأن يُهان شخص حقير أيسر من ان يُهان شخص رفيع الشأن . وإهانة رجل عظيم أخفّ من اهانة مثلها لملك جليل . وما هي إهانة اعظم ملوك الارض بالنسبة الى اهانة ربّ السماوت والارض ؟ هذه — كما قلنا — **غير متناهية** تفوق كل ما يمكننا ان نتصوّره .

ومن جهة اخرى ما هي قيمة أعمال البشر — بل كل المخلوقات معاً — مهما تسامت ؟ انها **محدودة** فلا تقوى على التعويض عن الاهانة التي ارتكبوها ضد الباري تعالى . فما العمل ؟ ليس بطاقتنا ان نجد الحلّ لهذا المشكل الذي لا حلّ طبيعياً له . فتنازل الله وأوجده وأوحى به .

٥ً وهذا الحل هو ان ابن الله الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس تجسد وصار انساناً من ذرّية آدم وهو باقٍ الهاً كما كان . فبما انه ابن آدم وُممثل

لكل ذرّيته كان قادرا ان يتواضع امام ابيـــه ويقدم له تـكفيراً عن خطايانا . وبما انه اله فـكل عمل تـكفير يأتيه له قيمة **غير متناهية** لان الاعمال بقدر منزلة صاحبها . وان منزلة ابن الله المتجسد لا حدّ لسموّها فقيمة عمل واحد من أعماله واستحقاقه **غير متناهية** . فهو قادر اذاً ان يـكفّر عن خطايانا تـكفيراً لا يساوي فقط بل يفوق اهانتنا لله .

٦ً وما هو هذا التـكفير ؟ نعرف مماَّ تقدم ان ابن الله كان قادراً ان يـكفّر عن خطايانا ويستحق لنا نعمة التبني بعمل واحد مثلًا بصلاة يتوسّل بها الى ابيه ان يصفح عنا ويعيد الينا حقوق البنوّة . ولـكنه لم يشأ ان يـكتفي بذلك بل اراد ان يعلّق خلاصنا على احتمال آلام مريعة والموت على الصليب . وسنرى سبب ذلك .

٧ً ولا تسري هذه الاستحقاقات الالهية على الفور بعد موت المخلص الى كل انسان بحيث يصبح حالًا ابن الله وشريـكاً للابن الوحيد بميراثه السماوي . انه لا بدّ من **تخصيص** هذه الاستحقاقات بـكل واحـد منّا ليستفيد منها . فهي كبحر مياهٍ صافية لا حدّ لها فانها لا تروي العطاش الّا اذا اقبلوا اليها واستقوا من زلالها . و كذلك لا يُعفينا الفـداء من الاستحقاق **الذاتي** والاجتهاد المتواصل **لنخصص** بنا استحقاقات الفادي الغير المتناهية بحسب الشروط الاساسية التي وضعها . وما هي هذه الشروط ؟

٨ً يعلّمنا الوحي المسيحي انه لا بدّ لنا ان **نولد ثانيةً** من المـاء

والروح القدس (يوحنا ٣ : ٥) بالعماد لنحصل على حياة بني الله الفائقة كل قوى الطبيعة .

كان العماد مستعملاً عند اليهود « كطقسٍ » ديني غايته تحريك عواطف الندامة والتوبة لنيل مغفرة الخطايا وهو قديم جداً عندهم . واننا نرى في الانجيل (مثلاً في متى ٣) كيف كان يوحنا الصابغ يستعمله ليحمل الناس على التوبة ويُعدّهم لمجيء المسيح . فهذا العماد قدّسه السيّد المسيح وأولاه قوّة فائقة الطبيعة **لمحض** المعتمد باستحقاقاته ويجعله « ابن الله » . غير ان هنا فرقاً بين الطفل الذي لم يبلغ بعد سنّ التمييز والانسان الذي اصبح يميّز بين الخير والشرّ .

اماً **الطفل** فلا يُطلب منه او بالحري من والدَيه سوى العماد لانـــه عاجز عن الاستحقاق الذاتي . فاذا مات وهو طفل معمَّد فانه باستحقاقات المسيح ينال الحياة الابدية اعني مشاهدة الله وسعادته . وإن مات الطفل ــ ايًا كان ــ ولم يُعمّد فانـــه يُحرَم من مشاهدة الله في السماء اذ انه لم يصبح ابنه . غير انه لا يهلك في جهنم لانه لم يرتـكب خطيئة فعليّة بل يحظى بسعادة طبيعية كالتي يتمنّاها الانسان في هذه الدنيا . ولا حرج على الباري تعالى في الفرق بمعاملة الطفل المعمّد والطفل الغير المعمّد لان العماد وحقوق البنوّة الالهية التي يوليها ليست سوى **نعمة مجانية** يعطيهـــا الرب كل انسان اذا تمّم الشروط التي وضعها . ولمّا كان الطفل عاجزاً عن تتميمها فالمسؤول عنه والداه فاذا اهملا هذا الواجب سواء عرفـــاه او لم يعرفاه حرما الطفل من مشاهدة الله . وعلى كل حال فان الله ليس بظالم اذا لم يمنح ما لا يقتضيه العدل الالهي .

واما **البالغ** فعليه مع العماد اذا امكنه الحصول عليه ان يؤمن بالله ويحبه ويحفظ وصاياه والَّا هلك الى الابد . فلا يفيده الفداء. بل يكون له سبباً لعقاب أصرم في جهنم . فترى انه ما من انسان اذا بلغ سنّ التمييز مُعفىً من العمل الذاتي **بسبب** الجزاء الذاتي الذي اكتسبه له السيّد المسيح بآلامه وموته .

٩° من كل ما سبق تتَّضح لك صفة **الوساطة** التي ينسبها مار بولس (١ تيمو ٢ : ٥) الى السيّد المسيح فانه بعمل الفداء. كان **وسيطاً** بين الله والبشر اذ « صالحنا » مع ابيه السماوي .

في حالة البرارة — قبل سقوط ابوينا — لم يكن الانسان محتاجاً الى وسيط بينه وبين الله لانه كان متحداً به تعالى مباشرة يحبّ الله والله يحبّه . ولكن الخطيئة فسخت عقد هذه الصداقة الثمينة « فتوسّط » الابن الحبيب وصالحنا مع ابيه بدمه . وليس هناك « وسيط » آخر لان الوساطة تقتضي **انساناً** هو في الوقت نفسه اله اعني الهاً متجسداً والاله المتجسد واحد . منه وبه الخلاص . وهو يسوع المسيح .

هذا **الوسيط** هو ايضاً **كاهن** وكاهن اعظم (عبر ٤ و ١٠) لان المسيح أتمّ فعل الوساطة بتقدمة جسده **ذبيحة** عن خطايانا . وكان في الوقت نفسه ذبيحاً ولذلك يسميه الانجيل « حمل الله » (يوحنا ١)[1] .

---

١) وللمسيح صفة أخرى ناتجة عن « وساطته » فهو « نبيّ » بأعلى معاني الكلمة لأنه اتانا من عند ابيه بكل الحقائق الخلاصية التي اوحاها الينا . فهو

قد انتهينا من عرض معتقدنا بسرّ الفداء. وقد لخصناه بعدّة قضايا سهلة المنال يستطيع القارئ ان يفهم كل واحدة منها على حدة ويقابل بعضها ببعض . والآن نسأل حضرة المعترض صاحب سيرة محمد المذكور : أما اتّضح لك انه لا تناقض البتة بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتي وانه لا حاجة الى « محاولات منطقية » للتوفيق بينهما . وان المنطق المسيحي — لو جاز لنا ان ننعت المنطق بأنه مسيحي او اسلامي — ليس دون المنطق الاسلامي قوّة ودقّة . لقد اتينا بسلسلة قضايا بسطنا فيها حقائق ايماننا بالفداء . فاية حقيقة طبيعية او علمية او فلسفية أو أخلاقية خالفناها أو جعلناها ظهريًا ؟ وهل وقع تناقض ما في اقوالنا بين قضية وقضية ؟ فاعتراض حضرته هو اذًا باطل .

ان فيما اوردناه الكفاية للغرض الذي توخيناه ومع ذلك لا بأس من ذكر اعتراض يستصعبه كثيرون من الخارجين عن الدين المسيحي لجهلهم

معلّمنا وراعينا وهادينا .

هو ايضاً ملك بل ملك الملوك . ولا عجب لانه «ابن الله» وبالتالي سيّد وربّ الكل وبنوع أخصّ « سيّد البشر » لأنه اشتراهم وافتداهم من عبودية الشيطان .

وهذه السلطة الملوكية ستظهر بكل ابهتها في اليوم الأخير اذ يأتي ثانيةً ليدين العالم ويجازي كل واحد بحسب اعماله . اما في هذه الدنيا فلا يستعمل سوى سلطانه الروحاني لتقديس النفوس ورعايتها وتبليغها الغاية التي مات لاجلها ولذلك لمّا سأله بيلاطس هل هو ملك أجابه «ان مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا ١٨ : ٣٦)

ومن كون يسوع « كاهناً » « ونبياً » « وملكاً » لُقب « بالمسيح » لان الكهنة والانبياء والملوك في العهد القديم كانوا يُمسحون بالزيت .

واما اسم « يسوع » فانه يدلّ خصوصاً على عمله الالهي الاعظم وهو خلاص شعبه لان معنى هذا الاسم العبراني هو « الله يخلص » (متى ١ : ٢١) .

حقائق ايماننا[1] .

« تقولون ايها المسيحيون ان المسيح الاله في كل عمل يأتيه استحقاق غير متناهٍ للتعويض عن كل خطايا العالم بل عن كل الخطايا الممكنة . فلماذا احتمل اذاً كل هذه العذابات الهائلة التي تروونها والموت على الصليب ؟ اما ترون انكم تنسبون الى الله الرحوم قساوةً فائقة بل ظلماً لا يُطاق ؟ هذا تناقض بيّن في معتقدكم بين جود الله الغير المتناهي ومعاملته القاسية لابنه الحبيب البارّ » .

لا يصعب الجواب .

قبل كل شيء يجب ان تنتبه الى أمر جوهري في غاية الأهمية وهو ان الله لم يغصب ابنه الحبيب على احتمال ما تكبّده من الآلام والموت

---

١) لا حاجة الى تفنيد اعتراض من يقول : « كيف يمكن المسيح ان يتألم وهو ابن الله على ما تزعمون ايها المسيحيون » ؟ لانه سبق وبيّنّا بطلانه في كلامنا على حياة المسيح البشرية اذ ذكرنا ان الطبيعة البشرية تعمل كل اعمالها كما تعملها فينا فانها تتألم وتموت كما نتألم نحن ونموت ولا مساس لذلك بالطبيعة الالهية غير ان اعمال الطبيعة البشرية تُنسب دائماً كما قلنا الى الشخص والشخص هنا هو ابن الله .

كذلك لا يلزمنا تكرار اعتراض من لا يعتبر لائقاً بابن الله ان يتألم ويحتمل كل ما احتمله من الاهانات والعذابات ثم الموت على الصليب . قلنا : ليس ذلك تذللًا بل تنازلًا « عجيباً » . لان الألم بحدّ ذاته ليس شرّاً بحصر المعنى كمخالفة وصية من وصايا الله انما هو في حالتنا الحاضرة نقص طبيعي في طبيعتنا البشرية ولذلك جاز لابن الله لدى اتخاذه طبيعتنا ان يتخذها بكل ما فيها من النقصان الطبيعي المنزّه عن كل خطيئة ولقد تنازل واتخذ آلامنا حتى يرفعها عنّا في الآخرة وقد اكتسب بذلك مجداً لا مثيل لهُ مدى الابدية .

على الصليب بل ان السيد المسيح تقدم الى الذبح بمل. اختياره وحريّته وقد برهن على ذلك بكلامه وتصرفه . قال (يوحنا ١٠ : ١١–١٨) :

« انا الراعي الصالح . . . ابذل نفسي عن الخرفان . . . من أجل هذا يحبني الآب لاني ابذل نفسي لآخذها ايضاً (بالقيامة من الموت) ليس احد يأخذها مني ولكني ابذلها باختياري . ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً . هذه الوصية قبلتها من ابي » .

وقد اتبع القولَ العمل . فسمح هذا الراعي الصالح لاعدائه ان يمسكوه ويتهموه تهماً شنيعة باطلة لم يفتح فاه ليفندها حتى تعجّب الوالي الروماني . وما ذلك كله الّا لانه اراد ان يموت . فهذه الملاحظة كافية بذاتها لدفع كل شبهة عن عدل الله وحبه لابنه البار . ولكن الصعوبة باقية . فإنه اذا كان عمل واحد صادر من المسيح — وهو الاله المتجسد — كافياً ليكفّر عن كل الخطايا الممكنة فلأي سبب احتمل — وإن بمل. اختياره كل هذه العذابات المريعة التي يذكرها الانجيل ؟ هنا سرّ محبّة الله العجيب .

أجل ان عملاً واحداً يعمله ابن الله كافٍ بذاته للتعويض عن اساءاتنا ولكي يمنح لنا نعمة التبني وكل المساعدات اللازمة للخلاص . غير ان هناك وجهة أخرى للمسألة لانه لا يتمّ الخلاص فعلا بان يمنحه الرب لنا ولكن بقبولنا له بحرية تامة لأن الله لا يغصب احداً على اتمام ارادته واكتساب مرضاته . فلا بدّ اذاً من ان يعمل الانسان بحرّيته ليُجازى بعد الموت خيراً إن اطاع الله وشرّاً إن عصاه . تلك حقيقة أساسية في الدين

المسيحي وقد اوحاها الله لبني اسرائيل ايضاً . فقد ورد في سفر ابن سيراخ (١٥ : ١٤) وهو عندنا كما عند اليهود من الكتب المنزلة :

« صنع (الله) الانسان في البدء وتركه في يد اختياره واضاف الى ذلك وصاياه واوامره . فإن شئت حفظت وصاياه ووفيت مرضاته . وعرض لك النار والماء فتمدّ يدك الى ما شئتَ . الحياة والموت امـام الانسان فما أعجبه يعطى له » .

فسياسة الرب في عمل خلاصنا بعد ان استحق لنا ابنه حقوق البنوية وجزاءها الاخير هي ان يسعى لتخصيص استحقاقات الفداء بنا وتحقيقه فعلاً دونه ان يمس حريتنا . ولذلك لا بدّ له من تحريك ارادتنا الحرّة بستميلها ولا يغصبها . وما السبيل الى ذلك ؟

رأى الله في سامي حكمته ـــ وهذا امر طبيعي ـــ ان السبيل الى جذب ارادة الانسان الى طاعته هو ان يحرّك فيها محبته . لان المحبّة قادرة على استمالة الارادة الحرّة وحملها على طاعة المحبوب مهما كلفها ذلك من المشاق « فان المحبّة قويّة كالموت » (النشيد ٨ : ٦) . وعليه احبّنا الله هو الاول . ولولا ذلك لما كنا نستطيع ان نحبه . « واحبنا الى الغاية » (يوحنا ١٣ : ١) وبرهن عن فرط حبه لنا بأن « بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به » (يوحنا ٤ : ١٦) .

وهكذا احبّنا ابنه ايضاً وبذل نفسه عنّا . قال القديس ايريناوس اسقف ليون في منتصف الجيل الثاني وهو المعلم العلّامة الشهيد :

« من فرط حبّه لنا صار كما نحن حتى يصيّرنا كما هو » .

وفي الواقع ان للصليب صوتاً لا يمكن من كان شريف النفس او بالاقل من كان ذا ضمير حيّ ان يصمّ الآذان عن سماعه . هذا الصوت يصرخ منادياً بحبّ الربّ يسوع لنا « احبني وبذل نفسه عني » كما قال بولس (غلاط ٢ : ٢٠) . فعندما ارى سيدي وربي مسمّرًا على الصليب معذباً مشبعاً اهانةً واحتقارًا لاجلي حتى ينتشلني من هوّة الهلاك الابدي ويجعلني اخاً له ووارثاً معه في ملكوته السماوي بعد ان كنت عبدًا اثيماً معادياً لابيه وله كيف يمكنني ان اشك في حبّه وكيف يمكنني ان لا أحبّه بكل قواي واحفظ وصاياه ؟

وقد سمع هذا الصوت ملايين من القديسين والمسيحيين الاتقياء واجابوا بحبّ لا مثيل له حملهم على مباشرة اعظم الاعمال البارّة حتى ضحّوا باموالهم وانفسهم وسفكوا دماءهم حباً بالله والقريب . ويا ليت بوسعنا ان نذكر تفاصيل هذه الاعمال اذاً للزمنا كتابة المجلدات الضخمة[1] . حسبنا ان نذكر من هو مقدّمهم ومثالهم القديس بولس الرسول فانه في رسالته الى اهل رومة (٨ : ٢٩–٣٩) بعد ما تأمل ما عمل المسيح حباً بنا صاح بصوت ملؤه الحبّ :

« من يفصلنا عن محبّة المسيح ؟ اشدّةً ام ضيق . ام جوع . ام عري . ام اضطهاد . أم سيف كما كتب (مزمور ٤٣ : ٢٣) : انا من اجلك نُمات النهار كلّه وقد حُسبنا مثل غنم للذبح ؟ لكنّا في هذه كلها نغلب بالذي

---

١) قد وُضعت هذه المؤلفات الضخمة في سير القديسين الذين تكرمهم الكنيسة « رسمياً » واماً تواريخ الأبرار الذين لا نعيّد لهم عيدًا فهي اكثر من ان تُحصى .

أحبنا . فاني لواثق بانه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا اشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علوّ ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربّنا ».

هذا جواب ذاك الرجل العظيم . وقد برهن[1] عملًا ان حبّه للمسيح كان صادقاً تشهد له الاعمال الباهرة وما تكبّده من الاتعاب والاسفار والاضطهادات حتى الموت ليسحق الوثنية وينشر عبادة الاله الحقيقي شرقاً وغرباً .

وهذا كان ايضاً جواب باقي القديسين : فيا لحكمة الله في سياسته الحلوة !

. . .

ولعلّ الحبّ الالهي لا يؤثر في الكل التأثير الفائق الذي وصفناه فان

---

١) ذكر شيئاً في رسالته الثانية الى اهل كورنتس مماً تكبّده في سبيل خدمته للمسيح (٢ كور : ١١ : ٢٤-٣١) قال : « جلدني اليهود خمس مرّات اربعين جلدة الّا واحدة . ضُربت بالعصيّ ثلاث مرّات . ورُجمت مرّة وانكسرت بي السفينة ثلاث مرّات وقضيت ليلًا ونهارًا في عمق البحر . وكنت في الأسفار مرّات كثيرة وفي أخطار السيول وفي أخطار اللصوص وفي أخطار من أمّتي وأخطار من الأمم وأخطار في المدينة وأخطار في البرّيّة وأخطار في البحر وأخطار بين الإخوة الكذبة . وفي التعب والكدّ والاسهار الكثيرة والجوع والعطش والاصوام العديدة والبرد والعري . وما عدا هذه التي هي من خارج ما يتفاقم عليّ كل يوم من تدابير الامور ومن الاهتمام بجميع الكنائس . فمن يضعف ولا اضعف انا ؟ او من يشكك ولا أحترق أنا . . . وقد علم الله ابو ربنا يسوع المسيح المبارك الى الأبد أني لا اكذب . . . »

هذه صفحة من اخبار هذا الرجل العظيم تدلي بما احتمله حباً بالمسيح وخير الانفس .

الصليب يُسمعنا مع صوت الحبّ – اذ لا بدّ ان نحبّ الله لنخلص – صوتاً آخر وهو صوت **العدل الالهي** . وهذا الصوت يثير في النفوس خوفاً مقدساً يردعها عن الخطيئة ويحملها على تتميم ارادة الله لتحظى بسعادته السماوية .

عندما اتأمل المصلوب وما قاساه من الاوجاع والاهانات وهو صامت – كأنه يعترف بأنه اهل لها – يتضح لي حالًا جسامةَ الخطيئة وقباحتها وما تستحقه من العقاب لانه اذا كان العدل الالهي لم يستنكف من ملاحقتها والاقتصاص منها في شخص ابنه الحبيب البارّ وان كان حاملاً فقط عبء التكفير عنها فما عسى ان تكون فظاعتها وخباثتها وشرّ مرتكبها ؟ ايجوز للخاطئ ان يعلّل النفس بان الله لا ينتقم من خطيئته ؟ لما كان السيّد المسيح حاملاً صليبه وذاهباً الى الموت كانت نساء عديدات يتبعنه باكيات (لوقا ٢٣ : ٢٨) فالتفت اليهنّ وقال :

« يا بنات اورشليم لا تبكينَ عليَّ بل ابكينَ على انفسكنَّ وعلى بنيكنَّ . . . لانهم ان كانوا صنعوا هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس . »

مغزى هذه الكلمات ظاهر . اذا كان البارّ الحامل عبء التكفير عن خطيئة لم يرتكبها يُعامَل هذه المعاملة فكيف يعامل صاحبها ان لم يتُبْ ؟ أفينجو من العقاب وعقاب يفوق بهوله آلام المسيح ؟ لا لعمري فلا يطمعنّ برحمة الله ليزيد خطيئة على خطيئة ويهمل التوبة . فان الله رحوم ولكنه عادل ايضاً وعدله كرحمته غير متناه . هذا هو الصوت الثاني الذي يُسمعه الصليب وما من أحد – ان لم يفقد كل احساس – الّا ويفهمه .

وهذا الخوف الذي يحركه في القلوب الفاترة مرأى المسيح معذّباً لاجلنا لا يمكن ان يكون الّا ممزوجاً بشيء من الحبّ له ولذلك هو خوف مقدّس يساعد النفس بل يحملها على طاعة الله.

فترى كيف يثير المصلوب أقوى عاملَين في قلوب البشر الحبّ الخالص لله والخوف المقدس من عدله الالهي وكيف يحرّك هذان العاملان النفوس المخلصة لله ويرفعها حتى تتحد به تعالى وتستفيد من خلاصه.

. . .

وزد على ذلك ان الصليب كتاب مفتوح يقرأ فيه المؤمن في كلّ ساعة — وان كان أمياً جاهلاً — أجمل واسمى آيات الفضائل التي عليه ان يمارسها. يقرأ الطاعة لله حتى الموت والتفاني في حبّ القريب وخدمة البائسين والتجرّد من حبّ الدنيا مع الصبر الجميل والاتكال على رحمة الله والتسليم لإرادته في كل شي.. بكلمة: هو كتاب القداسة واسماها بل ايضاً كتاب التعزية لان الصليب يجعلنا مشابهين للابن الوحيد وشركاءه يوماً في مجده السماوي.

ولقد قرأ هذا الكتاب الملايين من الشهداء الذين فضلوا العذاب وأشنع الميتات على مخالفة ولو وصية من وصايا الله. ولم يكن في الاجيال الثلاثة الاولى عصر الاضطهاد منبع آخر استقى منه الملايين من الوثنيين المتنصّرين مياه الحق والشجاعة حتى يتبعوا المسيح ويموتوا لاجله.

لقد قرأ هذا الكتاب كل القديسين العظام — وعددهم لا يُحصى — الذين يشهد بقداستهم حتى الخارجون عن ديننا. ومنه تعلموا ممارسة فضائلهم ومنه اتخذوا القوّة ليعملوا بها. ولا يزال هذا الكتاب موضوع تأمل كل المسيحيين وإعجابهم في كل آن ومكان. نرى مفاعيل تعاليمه

كل يوم حتى بين الشعوب التي كانت بالامس في عداد المتوحشين فلا عجب اذا كان بولس ــ وبعده كل القديسين والانبياء ــ يهتف والقلب مملوء حبًّا واعجاباً (غلاطية ٦ : ١٤) :

« حاشى لي ان افتخر الَّا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به صُلب العالم لي وانا صُلبتُ للعالم » .

واني لأتعجب واحزن من كراهة المسلمين للصليب مع انه عنوان الفضائل كلها واسماها . فهَبهم لا يؤمنون بسرّ الفداء وموت المسيح على الصليب ليخلّص العالم فلا يسعهم ان لا يعتبروه بالاقلّ رمزًا لاعظم حبّ صدر من قلب انسان لإخوته فأدّى بــه الى التضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل سعادتهم .

افلا يجدر بكل انسان وان كان مسلماً ان ينحني امامه معجَباً بمــا بشخصه من آيات الشهامة والقداسة التي لا مثيل لها على الارض .

والآن اما يجوز لنــا ان نقول : لقد نجحت سياسة الله عزّ وجلّ في اختياره الصليب لعمل خلاصنا ؟ فسبحان مَنْ بحكمته الفائقة كشف لنا عن هذا السرّ العظيم وقدّرنا بنعمته على الانتفــاع من الفداء دون ان يمسّ حريّتنا !

* * *

هذه فلسفة ايماننــا المسيحي واعتقادنا بالثالوث الاقدس والتجسد والفداء . فهل وجدتَ في كل ما عرضناه عليك اثرًا للتناقض والمخالفة لقاعدة منطقية او لحقيقة من الحقائق العلمية الراهنة التاريخية او الطبيعية ؟ أفما ظهرت لك صورة الله عزّ وجلّ جميلة رائعة البهاء ؟ هل نقص من اسارير وجهه الالهي شيء مما تعرفه عن صفات الله كوحدته وقدرته

وحكمته وعدله ورحمته ولطفه وسائر ما يكتشفه العقل البشري ؟ هل يشوّهها شيء. مما نقلناه عن تجسد المسيح وسفك دمه لفدائنا ؟ لعمري ان تسلسل تلك القضايا الايمانية العديدة التي ذكرناها ودقّة ائتلافها مما يشعر انها ليست من اختراع البشر بل تعاليم سماوية . ومع ذلك نكرّر ما قلناه غير مرّة : ليس هذا ركن اعتقادنا الثابت بهذه الاسرار الثلاثة . انما هو صحة **وقوع الوحي** بها . واننا نبرهن عنه بالمستندات التأريخية الاكيدة كما نبرهن عن باقي الحوادث التي يرويها التاريخ الصحيح .



الخلاصة

يحسن بنا في الختام ان نلخّص معتقدنا بالثالوث والتجسد والفداء .

١ً نؤمن ان الله واحد . وهذا الاله الواحد هو آب وأبن وروح قدس ثلاثة اقانيم او اشخاص لا يتميز واحدهم عن الآخر الّا بالاضافة او النسبة .

اي ان الابن هو من الآب . والروح القدس من الآب والابن . والآب ليس من أحد . فما ابعد هذه الحقيقة عما ينسبه الينا المسلمون من ان التثليث عبارة عن الله والمسيح والعذراء . اوقلنا ايضاً ان القرآن لا ينفي هذه القضية كما انه لا يثبتها وعليه ليس التثليث معثرة في سبيل المسلم المؤمن اذا احب التقرّب من المسيحي .

٢ً نؤمن ان الاقنوم الثاني — وهو الله الابن — اتخذ في أحشاء العذراء مريم بلا زرع بشري جسداً ونفساً كجسدنا ونفسنا وصار هكذا انساناً . فهو اذاً شخص واحد الهي بطبيعتين الهية وبشرية . وهذه العقيدة مخالفة ايضاً لما ينسبه الينا المسلمون فاننا لا نؤلّه انساناً . انّ ذلك كفر . انما نعبد الاله الحقيقي الواحد — الاقنوم الثاني — متجسداً[1] . وهذا واجب اذا صحّ وقوع التجسد .

٣ً نؤمن ان هذا الاله المتجسد كفّر بموته على الصليب عن خطيئة

---

١) وهل ينفي القرآن صريحاً التجسد ? ان هذه الفكرة غريبة عنه على رأينا .

آدم ابينا الاول . فأصبح جزاؤنا — إن أطعنا الله وحفظنا وصاياه — جزاء فائق الطبيعة وهو رؤية الله والتمتع بسعادته . وهذه القضية لا يعالجها القرآن وان كان ينفي موت المسيح في بعض آياته — فانها خارجة عن دائرة تعاليمه .

هذه هي الحقائق الثلاث الأساسية المبني عليها ايماننا المسيحي فيرى المسلم نقطة الخلاف بيننا وبينه . وهذه القضايا الثلاث لا يستطيع ان ينفيها الّا اذا برهن انها غير موحاة كما اننا لا نستطيع ان نثبتها الّا اذا برهنّا عن حقيقة وحيها لانها تفوق ادراك عقولنا .

واما كيفية اثباتها فالطريقة المثلى هي ان نبرهن اولًا ان السيد المسيح مرسل من عند الله والمسلمون يسلّمون بهذه الحقيقة — وانه هو علّمنا هذه الحقائق وتعليمه مُدوَّن في الاناجيل الاربعة و « أعمال الرسل » ورسائلهم وفي شهادة الكنيسة الاولى[1] — وسمّاها هرناك « الانجيل

---

١) نذكر القارئ لا سيما المسلم ان المسيح لم يكتفِ بنشر تعاليمه تاركًا لكل انسان يسمعها ان يحفظها ويعمل بها كيفما عنّ له . بل سلمها رسله الاثني عشر وجعلهم رؤساء مجتمع ديني بل دولة روحية جامعة هي « مملكة » وقد سمّاها « الكنيسة » وألزم كل اتباعه ان ينضمّوا اليها ويتلقنوا من رؤسائها لا سيما رئيسها الاعلى بطرس — وبالتالي من خلفائهم كل ما يجب اعتقاده وعمله للخلاص . وقد عصم كنيسته من الغلط في تعليمها حقائق الايمان ووعدها ان « ابواب الجحيم لن تقوى عليها » اي ان قوّات اعدائها لن تتغلب عليها وانها ستبقى كما أسّسها الى منتهى الأجيال تعلّم الحقّ وتقدّس النفوس . كل هذا نقرأه في مستنداتنا الكتابية وشهادات الاولين .

الخامس » — فاذا اثبتنا صحة هذه المستندات استنتجنا حالًا ان الاسرار الثلاثة — وغيرها المتضمنة فيها هي حقائق موحاة يجب الايمان بها .

وعلى كل حال فانه يتبيّن لكل عاقل منصف من مجرّد بسطها ان الايمان بها يؤدّي الى ممارسة أسمى الفضائل وأجملها اذ انها توجب على المسيحي — ان اراد ان يكون مسيحياً حقيقياً — ان يعيش كابن لله ويتخذ له المبدأ الذي اوصانا به المسيح :

« كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي كامل » (متى ٥ : ٤٨)

ويجعل امام عينيه المثال الفائق — وهو السيّد المسيح القائل :

« من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (متى ١٦ — ٢٤)

وما من عاقل له المام بالتاريخ ينكر ما انتجته هذه المبادئ المقدسة من القداسة والاعمال الخيرية السامية .

. . .

نذيّل مقالتنا هذه بالكلمة التي افتتحناها بها . كان غرضنا الاول من كتابتها تبرئة الدين المسيحي من وصمة الشرك والكفر التي يلصقها به كثيرون من المسلمين لجهلهم حقيقة المعتقد المسيحي . والغرض الثاني — وهو تابع للاول — ان نبين للمسلم انه يمكنه ان يصافح اخاه المسيحي ويسعى واياه يداً واحدة لتأليف وطن واحد يكون الكل فيه متساوين بالحقوق والواجبات . فقد بينا لهم انه لم يبقَ لهم حجّة لرفض التعاون والإخاء فاننا جميعاً من مسيحيين ومسلمين واسرائيليين نؤمن بالاله الحقيقي الواحد ووصاياه العشر وهذا كافٍ على ما برهن العلّامة الاجتماعي الشهير لوبله Le Play : لتشييد صرح الهيئة الاجتماعية على أساس متين .

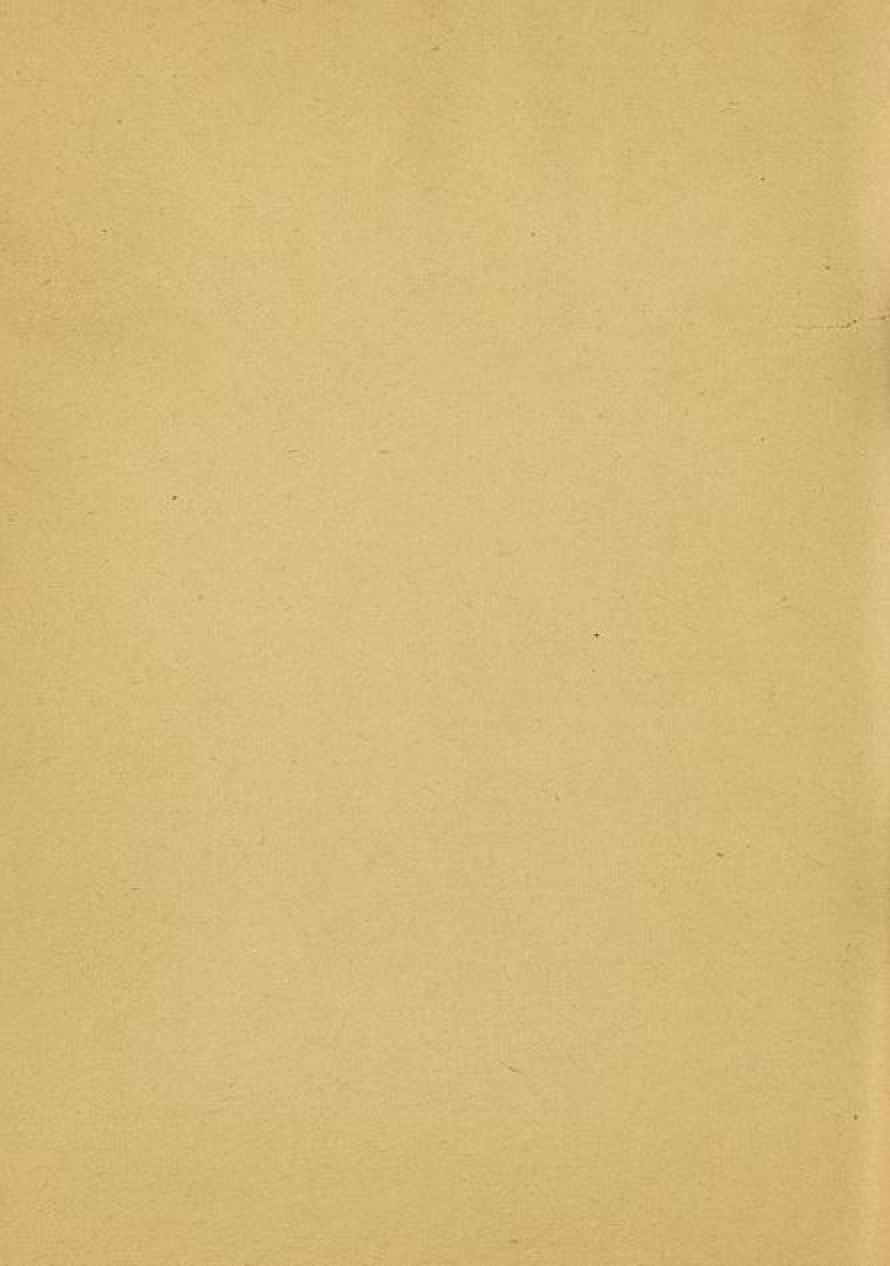
بل هو الشرط الذي لا بدّ منه كما قال الله في المزامير (١٢٦ و١٢٥)

« إن لم يبنِ الرب البيت فباطلًا يتعب البناؤون ان لم يحرس الربّ المدينة فباطلًا يسهر الحارس »

وها انّا نرى اليوم بامّ العين ما تؤول اليه حالة الشعوب من الخراب والاضطراب والظلم الفاحش عندما يحاولون ان يضعوا اساساً لمجتمعهم غير هذا الاساس . ولذلك يجب على كل المؤمنين بالله ان يضمّوا قواهم لمحاربة الالحاد الهادم لكل نظام اجتماعي .

اتذكر ان المرحوم الاب لويس شيخو الشهير زارنا يوماً لما كنت في مصر القاهرة حوالي سنة ١٩١٠ وكان هنالك ايضاً صديقه الموحوم الشيخ طاهر الجزائري . فركبنا يوماً نحن الثلاثة عربة مكشوفة وذهبنا لبعض شؤوننا وطفنا كل شارع الموسكي الآهل بالسكان واكثرهم مسلمون . وناهيك من تعجبهم عند رؤيتهم هذه العمّة بين قبعتي كاهنين . ومما قاله لنا وقتئذ الشيخ طاهر هو « انه يجب علينا نحن المسلمين والمسيحيين ان نتحد معاً لنحارب الالحاد وقد اخذ هذا الداء يتفشى فيما بيننا » ، ونعم الفكرة . وانّا نراها اليوم شائعة بين غير واحد من عقلاء المسلمين الدينيين . وما من مانع يحول دون العمل بها كما بينّا . حقق الله هذه الامنيَة لخير الوطن وسعادته !

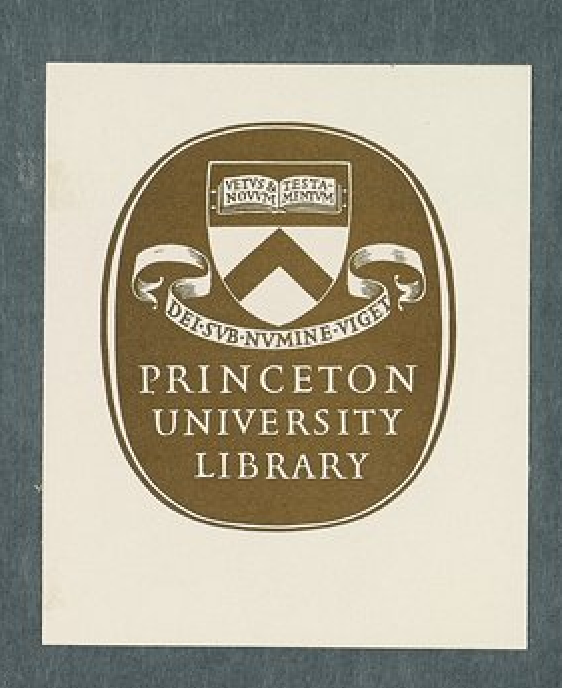
فهرس










VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY



ADAD KHASS
BI-AL-AHZAB
AL-SIYASIYAH FI
AL-BILAD
AL-ARABIYAH